ابـنُ البـــــرّاج

عـزالديـن عبد العزيز بن نـحرير الطرابلسي

عصره ،

سـيرته ، مُصنّفاته

صفحة الناشر

البسملة

ابنُ البــرّاج

عز الديـن عبد العزيز بن نحريـر الطرابلسي

(ت : 481 هـ / 1088 م)

عصره ، سيرته ، مُصنّفاته

الشـيخ د.

جعفـر المُهاجــر

ويذيله ما تيسّرَ من سيرةِ وأعمال تلميذه

أسعد بن أحمد بن أبي رُوح الطرابلسي

(ق : 504 هـ / 1110م)

فهرسـت الموضوعات

—

تصدير

تصدير

المقدمـــــة

بدأتْ قصّةُ هذا الكتاب مع السّيرة المُدهشة لسلفِ ابن البرّاج ، الرّائدِ الكبير محمد بن علي الكراجكي الطرابلسي (ت: 449هـ / 1057م) . فأثناء عمل الباحث عليها ، بدأتْ تتكشّفُ أمام عينيه عفواً بعضُ المعالم الضائعة لسيرةِ بلديّه وخَلَفِه في بلدهما "طرابلس" عزِّ الدين عبد العزيز ابنِ البرّاج . وذلك بحُكم وَحدةِ البلد والمَسار والمصادر. ممّا كوّن لديه حافزاً وأملاً بأن ينجحَ في تجاوزِ مُعطياتِ المصادرالضئيلة عنه ، وبأن يكتبَ على سيرته الحافلة بجلائل الأعمال . وبذلك يقضي حقّين مَنكوريَن : جزءً من حقٌّ "طرابلس" ونهضتِها العظيمة ، ولكن المَؤودة أيضاً بالاحتلال الصليبيّ . وذلك بالتعريفِ بأعلامها وأعمالهم . لأنهم هُم وحدَهم روحُ المدينة ومرآتُها . وحقَّ ابنِها وثاني أبطالها ابن البرّاج ، الذي لانجِدُ عن سيرته وأعماله في كافّةِ المصادرغيرَ أسطرٍ معدودات لا تُسمِنُ ولا تُغني من جوع . فضلاً عن أنه بمُتابعةِ البحث هناك فائدةٌ أُخرى ، ألفتنا إليها الأخُ الشيخ مُختاري أثناءَ التداول في خطّة عملنا . هي أن يبقى الباحثُ في الإطار البحثيّ الذي نضجتْ عناصره في ذهنه أثناءَ العمل على سيرة الرّائد الكراجكي. وهذه حالةٌ لا ينبغي التفريطُ بها ، طالما أنّ من المُمكن الاستفادة منها . وعليه فقد قرّرنا خوضَ مُغامرةِ البحثِ في هذا ، على الرُّغم من شُحِّ المصادر، وخشيةِ التقصيرفي أداء حقِّ صاحبه .

(1)

خطّتُنا في هذا الكتاب ، أن نكتبَ أوفى سيرةٍ مُمكنة ، تُتيحها لنا مُعطياتُ

المصادر ، للفقيه المُؤسّس عبد العزيز بن نحرير ابن البرّاج الطرابلسي . ومعلومٌ أنّ سيرةَ أيّ إنسانٍ هي مُحصّلةُ تفاعلٍ إيجابي حيّ بين الشخص / الذات ، وبين الوعاء الزّمني الذي عاش فيه بكافّة عناصره ، ما كان منها سياسيّاً ، وما كان منها اجتماعيّاً أو ثقافيّاً أو غير ذلك .

ونحن نعرفُ من تجاربنا،أنه ما من تفاعلٍ أعمقُ وأبعدُ أثراً من ذلك الذي يجترحُهُ ويقودهُ ويرعاهُ المُثقّفُ المُنتَمي/العُضوي ، المسكونُ بهموم ومُشكلات قومه ، العاملُ على ما يؤدّي إلى تقدّمهم ، وفقَ مفهومه للتقدُّم . خصوصاً حين يكونُ مالكاً لحسّ ورؤية القائد المُوجّه ، وقُدرةٍ على بثِّ فكره ، وبعْثِ الناس من حوله على الانقيادِ له . إذ ذاك يُوجّهُ جُهدَه باتجاه مواضع الخلل أو النقص بالضبط فيسُدَّها ، أو الإمكانات فيُنمّيها . وبذلك يمنحُ قومَه مُنطلقاً جديداً نحو عالَمٍ مُختلفٍ وأفضل من وُجهة نظره على الأقلّ . هي ذي مرتبةٌ أين منها مرتبةُ رجال الحُكم والسُّلطة . الذين لا يمكن أن يكونوا في أحسن الأحوال ، بوصفهم كذلك فقط ، إلا عابرين في سياق حركة التاريخ وأحداثه . على رُغم أنفِ كلّ التاريخ السّلطويّ وضروبِ خداعه وتزَييفه . وبهذا المنظور يكونُ ابنُ البرّاج ، وأيُّ مُثقّفٍ مُنتَمٍ عاملٍ من أمثاله ، أحقُّ بالعنايةِ من كلِّ الذين يُسوّدُ التاريخُ الرّسميُ الصحائفَ بهم .لا لغرضٍ إلا ليوهمنا أنّ هؤلاء هم المُمثّلون الحقيقيّون لحركة التاريخ . ويا لبُعدِ هذا المذهب عن الحقيقة .

(2)

سنقسمُ البحثَ إلى أربعة فصول . نعالجُ في كلِّ فصلٍ إشكاليّةً من إشكاليّاته .

. 1 : الفصل الأوّل : " **طرابلس حتى زمان ابن البرّاج** " وهو بمثابة تهيئةٍ عامّةٍ للقارئ للدخول إلى عالَمِ بطل هذه السّيرة . حيث سنصِفُ فيه التحوّلاتِ

الاجتماعيّة والسُّكّانيّة والسياسيّة والثقافيّة التي تآزرتْ وتتابعتْ خلال أربعة قرون من الزمان على تشكيل العالَم الذي اضطرب فيه. والذي كان قلبُه ، بالنسبة له وللبحث ، مدينةَ "طرابلس" ، ولكنّ الحقيقة أنه كان يضمُّ كلَّ غرب "الشّام" . أي المنطقة السّاحليّة المُمتدّة من شمال " طرابلس " إلى جنوب "صور" ، وصولاً إلى عاصمة "وادي الأردنّ" وعاصمةُ التشيُّع فيه آنذاك مدينة "طبريّة" .

والحقيقةُ أنّ هذا الفصل،على إيجازه الذي فرضته أنه تهيئةٌ لغيره ، هو خوْضٌ في الجانب غيرالمرأيّ من التاريخ ، الذي يستنكفُ المؤرّخُ الرّسميّ عادةً عن الخوض فيه . حيث على الباحث أن يُعيدَ تركيبَ صورةٍ واضحةٍ مَقروءةٍ من مِزَقٍ ما بدّدهُ الزمان كلَّ مُبدَّد .

. 2 : الفصل الثاني : " **في السّيرة** " . وفيه سنحاولُ عِمارةَ العناصر الأساسيّة / الأوّليّة لسيرة ابن البرّاج . وهي عناصر/ عناوين تحكي مسيرةَ أيّ إنسان في دروب الحياة . ولكنها هنا تأخذُ طابعَها الخاصّ المُمَيّز من عَوْلِ المعلومات المُتوفّرة عن الأسئلة التي تطرحُها سيرته ، بل سيرةُ أيّ إنسان . فضلاً عن اضطراب المصادر فيما تُقدّمه من معلومات . الأمرُ الذي ألجأَ الباحث أحياناً إلى الاستنجاد بآليّات غير مألوفة في البحث .

. 3 : الفصل الثالث : " **مع الشيخ الطوسي** " . هو ذا فصلٌ قد يبدو لبعضِ القارئين غير ضروريّ ، على الأقلّ بتخصيص فصلٍ برأسه له . ولكنّ الحقيقة ، التي أرجو أن يلمسَها القارئُ لدى الاطّلاع ، أنه يُلقي ضوءاً مُنيراً على جانبٍ هامٍ ومؤثّرٍ جدّاً من سيرة وحوافز ابن البرّاج الفكريّة . حقٌّ أنّ أكثرَ دراسته في "بغداد" كانت على السيّد المُرتضى ، وأنه لم يحضر على الشيخ فيها سوى ما يقلُّ قليلاً عن السنتيَن . ولكنّ الحقَّ أيضاً أن علاقته المتينة والمُثمرة بأبرز علماء الشيعة في زمانه ، وأحد أكبر مُصنّفيهم في كلّ العصور، قد استمرّت بعد أن غادر "بغداد"

عائداً إلى وطنه . وطالتْ من بعدُ زُهاء ربع قرنٍ من الزمان . كان من ثمراتها ما نزالُ ننعمُ ببركته حتى اليوم .

هذا ، وسنعودُ إلى مُناقشةِ بعض ما قيلَ ويُقال عن نمط العلاقة التي قامتْ بين العلَمَين بعد افتراقهما في الفصل التالي . حيثُ آثرنا إيراده هناك ، لعلاقته الزمانيّة والمكانيّة بفترة "طرابلس" من سيرته .

. 4 : الفصل الرابع : " **ابنُ البرّاج في طرابلس** " . وهو ذروةُ البحث ، وأطولُ فصول الكتاب . وفيه ، بعد تمهيدٍ عام عُدنا فيه إلى "طرابلس" وإلى الحياة السّياسيّة والعقليّة فيها يوم عاد إليها ابنُ البرّاج . ، عَرَضْنا لأعماله في وطنه ، أثناء ما يزيدُ على أربعة عقود من حياته فيها . تتبّعناه فيها مُدرّساً وقاضياً ومُصنّفاً . وختمنا الفصلَ بإيرادِ ثبتٍ وافٍ بمُصنّفاته كما ورد ذكرُها في المصادر. بعد تمهيدٍ ثانٍ خصّصناه للكلام على مذهبه في التصنيف .

. الختام . وفيه استعرضنا أبرزَ النتائج والمغازي التي وصل إليها البحث . وذلك إعانةً للقارئ، الذي لا اطلاع نقديّاً لديه على مُستوى البحوث في هذا الباب ، على الموطن أو المواطن التي يُمكن اعتبارها إضافةً جديدة . والحقيقةُ أنني أُعلّقُ دائماً أهميّةً كبيرةً على مضمون الخاتمة فيما أصنّفُ . ذلك لأنها تُعوّض وتسُدُّ جُزئيّاً على الأقلّ مَسَدَّ غياب الناقد عندنا . الذي محلُّه أن يقِفَ في موضعٍ مُتوسّطٍ بين المؤلف والقارئ . فيُعرّفه وفقاً لاختصاصه ، من موقعه الاحترافيّ ، على مواطن الإجادة أو الفشل أو القُصور فيما يصدُرُ من مُختلَفِ الكُتُب .

(3)

بالنسبة للمصادر الأساسيّة للكتاب . فهي في الاعتبارالأوّل ما وصلنا من مُصنّفاته ، وهي ثلاثة كُتُبٍ فقهيّةٍ : (المُهذّب) وهو آخر أو، على الأقلّ، من أواخر

ما صنّف وأكثرها أهميّةً ، وأوسعُ ما وصلنا من تصانيفه . و (جواهر الفقه) . و (شرح جُمل العلم والعمل) ، وكلّها مُحَقّقةٌ ومطبوعة .

ذلك إلى مصدريَن مُعاصريَن له ، هما (معالمُ العُلماء) لمحمّد بن علي ابن شهرآشوب المازندراني (ت:588هـ / 1192م) ، الذي قضى السنوات الأخيرة من عمره وتوفي في "حلب". وبذلك أُتيحَ له أن يُوصِلَ إلينا ما كان مُتَداولاً أو مُسجّلاً في بيئتها العلميّة عن صاحب السّيرة . و (فهرست مشايخ /عُلماء الشيعة ومُصنّفيهم) لمُنتجَب الدين علي بن بابويه الرّازي (ح: 585هـ / 1189م) . الذي وإن عاش عامّةَ عُمره في "الرّيّ" ، وهي بلدةٌ قديمةٌ من بلدان "إيران" ، غدتْ اليومَ ضاحيةً من ضواحي "طهران" ، ولكنه كان وثيقَ الصّلةِ بالدوائر العلميّة الشيعيّة في وطنه وفي "العراق" . وبذلك أُتيح له أن يُزوّدنا بمنظورٍ مُختلفٍ أحياناً عن سيرة ابن البرّاج ، استقاهُ ممّا يدورُ في البيئة العلميّة الشيعيّة . وكلا الكتابيَن في الترجمة لأعلام الشيعة الإماميّة .

هذا إلى مصدرٍ ثالث ليس يقلُّ أهميةً عنهما هو (رياضُ العلماء وحياضُ الفضلاء) لعبد الله أفندي الإصفهاني الجيراني (ت : 1130هـ / 1717م). وهو ، وإن عاش أيضاً في "إيران" وبعد ابن البرّاج بقرون، ولكنه باحثٌ مُنقّبٌ دَؤوب . سجّل لنا في كتابه معلوماتٍ ثمينةً عن ابن البرّاج ، استقاها من مصادرها المفقودة اليوم ، كانت قمينةً أن تضيعَ لولاه . وقد استفدنا منه كثيراً في مفاصلَ أساسيّةٍ من الكتاب .

وطبعاً سنستفيدُ من مصادر أُخرى كثيرة أقلّ أهميّةً ، في تفصيلات الإشكاليّات ، وفيما مهّدنا به لبعض الفصول والأقسام . من أبرزها (طبقاتُ أعلام الشيعة) للباحث المؤسّس آغا بُزُرك الطهراني . و (أمل الآمل) لمحمد بن الحسن الحُرّ العاملي . و(مُستدرَك الوسائل) للمُحدّث الجليل النُّوري . و(روضاتُ

الجنّات) لكاتبِ السّيرة ذي الذّهنِ اللّمّاح لمحمد باقر الخوانساري . و (ذيل تاريخ دمشق) لابن القلانسي . و (اتعاظ الحُنفا) للمقريزي . و (التفضيل) و (معدن الجواهر) للشيخ الكراجكي . وكُلٌّ منها كتابٌ ذو امتيازٍ في بابه ، وساهمتْ مُساهماتٍ مُتفاوتة في تقدُّم البحث . ولكنها جميعها ، على تفاوت قيمتها ، لم يكُن عنها غنى . ويجِدُ القارئ ثبتاً بها جميعَها ، مع مُواصفاتِ نشْرتها ، في خاتمة الكتاب .

هذا ، ولقد ذيّلنا الكتابَ بما تيسّرَ من سيرةِ وأعمالِ تلميذهِ النّجيب أسعد بن أحمد بن ابي روح . قضاءً لِما أمكنَ قضاؤه من حقّه .

الشكرُ لله سبحانه على حُسن توفيقه إلى إحياءِ أمرِ ورَفْعِ ذكرِ هؤلاء الأعلام الأجِلاّء، الذين نَدينُ لهم بكلّ نافعٍ وجميل . ونسأله تباركَ وتعالى أن يُديمَ نِعَمَه في هذا ومثله علينا . ثم الشكرُ الموصول للأخ العزيز الشيخ رضا مختاري ، الذي واكبَ هذا العمل منذ كان فكرةً ، ورفَدَهُ ، كما عوّدني دائماً ، بما تحت يده ممّا احتجتُ إليه من مصادر.

والحمد لله ربِّ العالمين

بعلبك في 15 رجب 1431هـ

28 حزيران / يونيو 2010م

طرابلـس

حتى زمـان ابن البرّاج

(1)

"طرابلس" ، أو كما في بعض المصادر العربيّةِ القديمة "طرابلس الشام" ، تمييزاً لها عن مدينة أُخرى تحمل الاسم نفسه في شمال "إفريقية" . ، مدينةٌ عريقةٌ على ساحل "البحر الأبيض المُتوسّط" ، شمال "الجمهوريّة اللبنانيّة" اليوم .

واسم المدينة قادمٌ من اللغة الرّوميّة / اليونانيّة . وهي إحدى لغتيَن كانتا سائدتيَن في بلاد "الشام" قبل الإسلام : الرّوميّةُ ، لغةُ الدولة الرّسميّة وخطابِها . والسّريانيّة ، وهي فرعٌ من اللغة الآراميّة ، لغةُ الناس اليوميّة في علاقات العمل والسوق والطقوس الدينيّة المسيحيّة المحلّيّة . واسم المدينة الرّومي tri polis ، أي المدينة المُثلثة أو الثلاثيّة . وعندما افتتحها المسلمون لفظوا اسمها بما يتناسب مع اللسان العربي ، فسمّوها "اطرابلس" . وظلّ هذا الاسم معمولاً به على ألسنة الناس وفي الأدبيّات عدّة قرون . وانتهى بحذف الألف تخفيفاً . وما يزال كذلك حتى اليوم .

ويُفهم من اسم المدينة الروميّ أنها كانت تجمّعاً من ثلاث مُدُن صغيرة . كلٌّ مدينة منها مُستقلّةٌ بتحصينٍ خاصٍ بها . هكذا وجدها الفاتحون المسلمون . يؤيّد ذلك وصفُ البلاذري لها بأنها "**ثلاثُ مُدُنٍ مُجتمعة**" . وقوله ، وهو يصِفُ حصار المسلمين لها ، أن أهلها "**اجتمعوا في أحد الحصون الثلاثة**" [(1)] .

---

(1) البلاذري : فتوح البلدان، دار النشر للجامعيين، بتحقيق عبد الله وعمر الطبّاع ، ط. 1377هـ/1957م / 173.

لكنّ المدينة المعروفة بهذا الاسم حتى اليوم هي غير تلك التي عاش فيها ابنُ البرّاج . بل تلك "طرابلس" المملوكيّة . بناها السلطان المملوكي المنصور سيفُ الدين قلاوون الألفي (689-678هـ/1290-1288م) ، شرق المدينة التاريخيّة بعيداً عدّة كيلو مترات عن شاطئ البحر . ذلك أنه ما أن حرّرها المسلمون من الاحتلال الصليبي سنة 688هـ/ 1289م ، حتى أمر السلطانُ بهدمها وتسويتها بالأرض . وهو إجراءٌ غريبٌ جدّاً . يتفنّنُ بعضُ المؤرّخين في تلمّس الأعذار الواهية له . ومن ذلك قولُ أحدهم : "**حتى يُزيلَ بذلك آثارَ الصليبيين . وحتى تتجنّبَ المدينةُ الجديدةُ الأضرارَ التي قد تُصيبها من غاراتِ الفرنجة**"[2] . وهذا عذرٌ بارد . فإزالة "آثار الصليبيين" يحصلُ بإزالة آثارهم هُم ، وليس بهدم مدينةٍ عظيمةٍ بكاملها . والغرضُ الثاني يقتضي ترميمَ حصونها وشحنها بالمُقاتلين ، وليس التفريط بموقعها الاستراتيجي الهام وبحصونها المنيعة . والحقيقةُ أنّ السلطانَ رمى من وراء ذلك إلى الحؤول بين أهل "طرابلس" الأصليين المسلمين الشيعة ، الذين أُخرجوا من المدينة من قبلُ عندما احتلّها الصليبيّون ، وانتشروا في أنحاء "جبل لبنان" ، من العودة إليها بعد أن حُرّرتْ . يدلّ على ذلك أن السلطان نفسه أمر بهدم مدينة "صور" أيضاً ، ليحولَ أيضاً بين أهلها الأصليين الشيعة أيضاً ، الذين كانوا ينزلون أنحاء "جبل عامل" ، وبين العودة إليها . في حين أنه استبقى "بيروت" و "عكّا" ولم يمسّهما بسوء . والذي شكّلَ الفارقَ السياسي لدى السلطان المملوكي ، أن هاتين المدينتيَن لم تكونا تحت تأثير غالبيّةٍ سُكّانيّةٍ شيعيّة مُجاورة ، خلافاً لـ "طرابلس" و "صور" .

---

(2) عبد العزيز سالم : طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي ط. الإسكندريّة ، لات / 294 .

هكذا انتهى تاريخ "طرابلس" العظيمة ، التي أنجبت إحدى أروع التجارب التاريخيّة في السياسة والثقافة والتنمية . وغدا موضعُ خرائبها مُجرّد ميناء . ما يزالُ يحملُ على ألسنة أهلها اسمَ "المينه" حتى اليوم .

(2)

ظهرتْ "طرابلس" الإسلاميّة على مسرح الأحداث كأنما فجأةً . بعد أن ظلّت لقرون مُجرّد ثغرٍ بحريٍّ مَخوفٍ ، يحتالُ أولياءُ الأمور لخفارته بالمُرابطين المجلوبين ، خشيةَ الغزوات البحريّة الرّوميّة المُفاجئة . ومن ذلك أنّ معاوية نقل إليها جماعةً من الفُرس . ظلّوا عماد سُكّانها حتى خواتيم القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد حتى الأقلّ . يقول البلدانيُ الخبير ابن واضح اليعقوبي (ح: 292هـ/904م) : "**مدينة طرابلس ، وأهلها قومٌ من الفُرس ، كان معاويةُ بن أبي سُفيان نقلهم إليها**" [3]. والحقيقة أنّ هؤلاء لم يكونوا من الفُرس . وإنما كانوا عرباً من أهل "الخليج الفارسي" على الأرجح . تشهدُ لهم بذلك أسماؤهم العربيّة حيث تُذكَر [4] .

لكن الشاعروالرحّالة ناصرخسروالقبادياني ، الذي زارالمدينة أثناء رحلته الواسعة ، بتاريخ 5 شعبان438هـ/6 شباط ، فبراير1047م ، أي يوم كان ابنُ البرّاج يحضرُ حلقةَ الشيخ الطوسي في "بغداد"، يصفها وصفاً يُودعُ في الذهن صورةً مُختلفةً تماماً عن تلك التي نخرجُ بها من كلام اليعقوبي . فهو يَصِفُ مدينةً ناهضةً بكلّ المعاني . وها نحن نقتبسُ بعضَ نصّه لِما فيه من غنىً وجمال ، قال :

---

(3) اليعقوبي : كتاب البلدان ، ط. ليدن 1891م / 337 .

(4) انظر ، مثلاً ، البلاذري : فتوح / 201 .

" وكان بلوغنا إياها [أي طرابلس] في يوم السبت الخامس من شعبان . وحول المدينة المزارعُ والبساتينُ ، وكثيرٌ من قصب السكر ، وأشجار النارنج والترنج والموز والليمون والتمر . وكان عسلُ السّكر يُجمع حينذاك "

ومدينة طرابلس مَشيدةٌ بحيثُ أنّ ثلاثةً من جوانبهامُطلّةٌ على البحر . فإذا ماجَ علَتْ أمواجُهُ السّور . أمّا الجانب المُطلُّ على اليابس فبه خندقٌ عظيم ، عليه بابٌ حديدٌ مُحكم . وفي الجانب الشرقي من المدينة قلعةٌ من الحجر المصقول ، عليها شُرُفاتٌ ومقاتَلاتٌ من الحجر نفسه ، وعلى قمّتها عرّاداتٌ لوقايتها من الروم . فهم يخافون أن يُغيرَ عليها هؤلاء بالسفن" .

"ومساحةُ المدينة ألفُ ذراع مُربّع . وأربطتها أربعُ أو خمسُ طبقات . ومنها ماهو ستُّ طبقات . وشوارعها وأسواقها جميلةٌ نظيفةٌ . حتى لنظنّ أنّ كلّ سوقٍ قصرٌ مُزيّن" .

"وقد رأيتُ في طرابلس ما رأيتُ في بلاد العجم من الأطعمة والفواكه . بل أحسنَ منه مائة مرّة . وفي وسط المدينة جامعٌ عظيمٌ ، نظيفٌ جميلُ النقش حصين . وفي ساحته قبّةٌ كبيرةٌ ، تحتها حوضٌ من الرّخام ، في وسطه فوّارةٌ من النحاس الأصفر . وفي السوق مَشْرعةٌ ذات خمس صنابير ، يخرجُ منها ماءٌ كثير . يأخذ منه الناس حاجتهم ، ويفيضُ باقيه على الأرض ويُصرف في البحر . ويُقال أن فيها عشرين ألف رجل . ويتبعها كثيرٌ من السّواد والقُرى. ويصنعون بها الورق الجميل ، مثل الورق السّمرقندي ، بل أحسنُ منه" .

" [. . . . .] وسُكّانُ طرابلس كلّهم شيعة . وقد شيّد الشيعةُ مساجدَ جميلةً في كلّ البلاد . وهناك بيوتٌ على

مثال الأربطة ، ولكن لا يسكنها أحد . وتُسمّى مشاهد . ولا يوجد خارجَ طرابلس بيوتٌ أبداً . عدا مشهديَن أ و ثلاثة من التي مرّ ذكرها " [(5)].

هي ذي أمامنا كافةُ عناصر مدينةٍ إسلاميّةٍ كبيرةٍ مُزدهرةٍ في ذلك الأوان : الإطارُ الحصين السُّور ، والجسم المساكن ، والقلب المسجد ، ومكان الارتزاق السّوق ، وجهازالانتاج المصنع . تستقرّ جميعُها وسطَ مُزدرَعٍ خصيب . أبرزُ نتاجه قصبُ السّكّر. يُعتصَر ليُصنعَ منه السّكّر، ويُوجّهُ ما يبقى منه بعدَ العصْر إلى صناعة الورق الممتاز. ومن المعلوم أنّ هاتين المادتين كانتا في ذلك الأوان ثمينتيّن مرغوبتيَن . وعليه فما من عجبٍ بعدُ أن تتمتّعَ المدينة بما نجح الكاتب في تصويره من رفاهٍ وغنى .

المغزى الأساسيّ للمقارنة بين نصّي اليعقوبي وناصر خسرو أن المدينة قد تحوّلتْ من حالٍ إلى حالٍ في ما يقلّ عن قرنٍ ونصف القرن . نمَتْ أثناءها سُكّانيّاً وإنتاجيّاً وعُمرانيّاً ، من ثغرٍ عسكري يعمره مُرابطون مجلوبون ، إلى مدينةٍ غنيّةٍ تضجُّ بالحيويّة والنشاط . ونحن حين ننقلُ أبصارنا بين النصّيَن نكادُ نرى المدينة وهي تنمو .

فكيف حصل ذلك ؟

كيف نجحتْ مدينةٌ في النموّ كمّيّاً ونوعيّاً على هذا النحو في تلك المدّة القصيرة ؟

نعرف بتجربتنا البائسة مع التاريخ الرّسمي المكتوب أنه قاصرٌ قصوراً فادحاً عن الإجابة عن هذا السؤال ، بل وعن أي سؤالٍ من مثله ،

---

(5) ناصر خسرو القبادياني : سفر نامه ، ترجمة يحيى الخشّاب ، ط . بيروت 1970م / 48،47 .

ممّا يتصل بأحوال العباد. وما ذلك إلا لأنه مشغولٌ كُليّاً ، في أحسنِ الأحوال ، بتتبّع أحوالِ وأعمالِ أهلِ السُّلطة . هذا إذا لم يصرِفْ جُهدَه إلى تزييف التاريخ الذي يُعجبُها ، فيُغطّي على عوارها ، ويُلمّعُ ما يرى فيه محاسنَها . ولكنه دائماً يستنكفُ عن ذكر كلّ ما له علاقة بالناس العاديين . فلا يكترثُ بالمُتغيّرات السُّكّانيّة وعلاقات الإنتاج والأحوال الثقافيّة وما إليها. وهي هي التاريخُ الحقيقيّ لو كانوا يعلمون .

لذلك فإنّ علينا أن نُعمِلَ النظرَ في هذا السؤال الإشكاليّ من موقع وبمنهج المؤرّخ الاجتماعي الإنساني . بادئين من مُلاحظةٍ أساسيّة ، هي الانبعاثُ شبه المُفاجئ للمدينة . فإذا بها من حيثُ لا يُحتسَب مدينةٌ ناهضةٌ بكلّ المعاني . وهذا يقتضي فرضيّةً لا بُدّ منها . هي أنها قد تلقّتْ مَدَداً سُكّانيّاً كثيفاً ، كان المادّةَ الأساسيّةَ لصورتها الجديدة كما قرأناها عند ناصر خسرو . هذا المَدَد لم يهبط عليها من السماء ولا ريب . كما أنه لم يكُن نتيجةً لنموٍ سُكّانيّ طبيعي بالتأكيد ، لأنه يفوقُ بكثير مُعدّلاتِ النُّمُوّ السُّكّاني آنذاك . بل لا بُدّ أن يكونَ قد سلكَ إليها من مصدرٍ مكانيّ غير بعيد عنها . ثم لا بُدّ لهذا المَدد السُكّاني أن يكونَ من لونٍ ثقافيّ يتناسبُ مع ما سيؤولُ إليه أمرها عن قريب . نعني بذلك ما صرّح به ناصر خسرو حيث قال :" **وسُكّانُ طرابلس كلّهم شيعة**" . وذلك أمرٌ ثابتٌ على كل حال .

هذا المنهج يُحدّدُ السؤال على النحو التالي : من أين أتى أولئك السُّكّان الشيعة ، الذين نهضوا بـ "طرابلس" ونهضتْ بهم ذلك النهوض السريع ؟

من المؤكّد أن المنطقة الجبليّة المُجاورة ، المعروفة اليوم بـ "الضنّيّة" ، واسمُها التاريخي "جبال الظنيين" ، كانت منذ أواسط القرن الأوّل

للهجرة / السابع للميلاد معمورةً بجماعات همْدانيّة (نسبةً إلى همْدان القبيلة اليمانيّة) [6] . نزلتها قادمةً من "الكوفة" ، بعد انهيار المشروع السياسي ، الذي قاده على التوالي الإمامان علي والحسن (عليهما السلام) . ومن المعلوم أن هذه القبيلة اليمانيّة الأصل قد نزلتْ "الكوفة" قادمةً من مواطنها الأصليّة في شرق "اليمن" ، حيث ساهمت مُساهمةً جُلّى في نُصرة إمامها. ولكنها اضطرّتْ مُكرهةً إلى مُباينة منازلها والهجرةِ إلى "الشام" ، حيث تفرّقتْ في مختلف أنحائه . وكانت الجبالُ المعروفة بـ "جبال الظنّيين" إحدى منازلها العديدة في مهجرها الجديد . وقد وقفنا على جميع تلك المنازل منزلاً منزلاً في كتابنا (التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسوريّة) . والحقيقةُ أنّ الهجرة الهمْدانيّة الكبرى إلى أنحاء "الشام" هي عمادُ نظريّتنا في "التأسيس" لتاريخ الشيعة فيه ، خلافاً لكلِّ التّوقُعات ، التي بسطناها في كتابنا هذا .

ولقد ظلّت همْدانُ ، فيما يبدو ، مُنكفئةً في مواقعها الجبليّة . على الرغم من أن مدينة "طرابلس" المُجاورة كانت سالمةَ العُمران ، خاليةً من السكان . وما ذلك إلا لأن السيطرةَ الروميّة على "البحرالأبيض المتوسط" تركتْ سواحله مُعرّضةً دائماً لغاراتهم البحريّة المُفاجئة . فيقتلون ويأسرون

---

(6) تتوفّرُ الإشارات إلى ذلك كلّه لدى : شهاب الدين ابن فضل الله العُمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (فصل القبائل العربيّة في عصر المؤلف) ، ط. بيروت بتحقيق دوروتيا كرافولسكي 1406هـ/1985م /155 ، والقلقشندي : صبح الأعشى ، ط. مصر المؤسسة المصريّة العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، لات : 328/1 ، ونهاية الأرب في أنساب العرب ، ط. بيروت 1400هـ/1980م/ 439 . وعلى كلّ حال فقد بحثنا الهجرة الهمْدانية الكبرى إلى "الشام" وتأثيرها السكاني والثقافي في كتابنا : التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسورية .

وينهبون كيف شاؤا . ولم يكُن هذا حالُ "طرابلس" فقط ، بل إنّ كلّ الساحل الشرقي كان كذلك، من "اللاذقيّة" شمالاً حتى "غزّة" جنوباً. وكلما كان الموقعُ أقربَ إلى موانئهم ، كان أكثر عُرضةً لغزواتهم . ومن ذلك أنهمّ أحرقوا مدينة "اللاذقيّة" بكاملها. وظلّت لمُدّةٍ طويلةٍ تُسمّى بـ "اللاذقيّة المُحترقة" . حتى نمتْ القوّةُ البحريّةُ الإسلاميّةُ، وارتفعت السيطرة الرّوميّة.وغدتْ السواحل الإسلاميّة في مأمنٍ من غزواتهم . إذ ذاك بدأ تغييرٌ سُكّاني شامل ، كان من آثاره امتلاءُ المراكز السّكانيّة السّاحليّة فيها .

ذلك هو الإطار التاريخي ، الذي حصل فيه المُتغيّرُ السّكانيّ الشامل ، الذي كان من أهمّ آثاره أن هيّأ الأساسَ والقاعدةَ لنهوض "طرابلس" . فالهمْدانيّون الذين انعزلوا لمُدّة قرنين تقريباً في معاقلهم الجبليّة العالية ، ما أن رأوا أنّ الخطرالبحريّ الرّومي قد ارتفعَ عن المدينة المُجاورة لهم ، والتي كانت ما تزال في حالٍ مقبولةٍ من حيث العُمران ، ببروز القوّة البحريّة الطولونيّة ، حتى تدفّقوا عليها وعمروها . وهذا تفسيرٌ ينظر إلى طرفَي الإشكاليّة : ظهورها شبه المُفاجئ على مسرح التاريخ ، وهُويّتها الشيعيّة ، في الآن نفسه .

والظاهر أنّ صعودَ نجم المدينة قد بدأ في المُدّة التي كانت فيها تحت حُكم الطولونيين . ففي السنة 264هـ / 877 م استولى أحمد بن طولون على "دمشق" و "حمص" و "أنطاكية" . وبذلك غدتْ مدينة "طرابلس" تابعةً لبني طولون في "مصر" . وفي عهدهم زارها المؤرّخُ الجغرافيّ ابنُ واضح اليعقوبي ، حيث قال فيها ما أثبتناه قبل قليل وشرحنا دلالته ومغزاه . كما قال في مينائها أنه "**ميناءٌ عجيبٌ يحتملُ ألفَ مركب**" [7] . وهو وصفٌ مُبتسَرٌ جداً ـــــ

(7) كتاب البلدان / 337 .

من أسف ، لايلتفتُ إلى درجة النشاط الفعليّ فيه . ولكننا نعرف من مصادر أخرى أنّ ابن طولون وابنه خمارويه (282ـ270هـ / 895ـ883 م) قد أوليا موانئ "الشام" عنايةً كُبرى ، فرمّماها وحصّناها وشحناها بالمُقاتلين وبالسُّفن

المُخصّصة للقتال[8] . وهذه سياسةٌ مفهومةٌ جدّاً . فالطولونيّون حكموا دولةً بحريّةً ، هي "مصر" . تقومُ عقيدتُها العسكريّة على قوّة السّلاح البحري ، خصوصاً في ظلّ التهديد الرّوميّ الدّائم . على العكس من عبّاسيي "بغداد" الداخليّة . وقد ترك مؤسّسُ الدولة الطولونيّة عند موته أسطولاً قويّاً ، مؤلفاً من مائتي سفينةٍ حربيّةٍ بكامل تجهيزاتها [9].

هكذا أدّى التوازنُ العسكريُ الجديد إلى رفْع التهديد الرّومي المُزمن عن السواحل الإسلاميّة ، بما فيه مدينة "طرابلس" . ومنحَ الهمْدانيين الكامنين في الجبال القريبة فرصةَ الهبوط منها باتجاه المدينة ، التي كانت كأنما بانتظارهم . وهكذا نهضتْ "طرابلس" سُكّانيّاً وعُمرانيّاً ذلك النهوض المُفاجئ العجيب .

(3)

التطوّرُ التاريخي الثاني باتجاه "طرابلس" التي عاش فيها ابنُ البرّاج يتمثّلُ في استقلالها . يعني في أن يكونَ لها سُلطةٌ سياسيّةٌ مُستقلّةٌ عن القُوى السياسيّة الكُبرى المُسيطرة في المنطقة . ذلك أن موقعَ المدينة المُتوسّط بين السّلاجقة الذي بسطوا سلطانهم على "العراق" و "الشام" ، والفاطميّين حُكّامُ "مصر" وحيناً "الشام" ، قد جعل منها منطقةَ تنازُع بينهم يستولي عليها هذا أو

---

(8) الكندي ، محمد بن يوسف : وُلاة مصر ، ط . بيروت ، دار صادر ، لات / 258 .

(9) قاسم عبده قاسم : التنظيم البحري الإسلامي شرق المتوسط ، ط . بيروت 1908م / 52

ذاك . ثم لايكونُ من المُستولي عليها إلا أن يولّي عليها والياً من قِبله . ومن الغنيّ عن البيان أنه ، في ظلِّ وضعٍ سياسيٍّ غير مُستقرٍ كهذا ، ليس من المُتوقّع إطلاقاً أن تحظى المدينةُ بأيّ فرصةٍ للنهوض المعنوي والمادّيّ .

وعلى كلّ حال ، فإنّ الأبعدَ من هذه الفذلكة التاريخيّة ، التي قد تبدو غير مُقنعة لبعض القارئين ، لِما فيها من تعميمٍ يتجنّبه المؤرّخُ الحصيفُ عادةً . ، هوالواقعُ التاريخيّ الذي سنخوضُ فيه بعد قليل .

إن استقلالَ "طرابلس" يرتبطُ بأُسرةٍ بني عمّار الطّائيّة . التي حكمتْ المدينةَ زُهاءَ نصف قرن ، ولم تسقط من التاريخ إلا بسبب الاحتلال الصليبي للمدينة ، بعد أن ضربوا في الدفاع عنها أروعَ الأمثال في الصبر والمُصابرة والجهاد . ولكنهم أثناء فترة حكمهم لها ، على قِصَرها ، أتوا من جلائل الأعمال ما أدخلهم التاريخ من أوسع أبوابه . والمؤرّخون يُجمعون على وصف أُمرائها جميعاً بكلّ جميل ، بعدلهم وسَدادهم وسياستهم وعفّتهم عن الدّماء والأموال وبُعد نظرهم وجهادهم . ممّا لا نجدُ له نظيراً في كلّ مَن نعرفه من الأُسرات الحاكمة .

والحقيقة أنّ ستاراً مُحكماً من الغموضَ يُحيطُ بأصلِ هذه الأُسرة الجليلة. وذلك أمرٌ غيرُ غريبٍ بالنسبةِ إلى أُسرةٍ مثلها، برزتْ بنفسها من غُمارالناس بفضل كفاءةِ أبنائها، عن غير سابقةٍ في السُّلطة أوغيرها ممّا يكون سبباً ووسيلةً لبروز الناس . يؤيّدُ ذلك أن نسَبَها ، فيما هو مذكورٌ في كلّ الكُتُب التي تأتي على ذكرها، ينتهي عند مَنْ اسمه (عمّار) ، هكذا مُجرّداً حتى عن ذكرِ اسم أبيه ، ممَا يدلُّ على أنه لم يكُن شيئاً مذكورا . وهو الذي منحَ الأُسرةَ اسمَها الذي دخلتْ به التاريخ من أوسع الأبواب. وهو جدُّ أوّلِ أُمرائها أبي طالب أمين الدولة عبد الله بن محمد بن عمّار (ت: 464هـ / 1072م).

بعد أن حكم لفترةٍ غير طويلة، لا تزيدُ عن خمس أو ست من السنين .

ومن آثار ذلك الغموض ، أنّ اسمَ مؤسّس الأُسرة في الحُكم ، على ما في عامّة المصادر، هو(حسن) [10]. وذلك خطأٌ بالتأكيد . لأنّ من الثابت عندنا أنّ اسمه الحقيقي (عبد الله) . يدلُّ على ذلك أنّ الفقيه الشيعي الطرابلسي الجليل محمد بن علي بن عثمان الكراجكي (ت:449هـ /1057م) ، الذي من الثابت أنه عرفَ الأميرَ معرفةً شخصيّةً مديدةً متينةً ، سمّاه (عبد الله) في فاتحة كتابه الذي صنّفه بناءً على طلبه ، واسمه (البستان) أو (بستان الكرام) [11]. وكذلك سمّاه أيضاً المؤرّخُ الشّاميّ . المصري المقريزي [12] . وفي ذلك وغيره ممّا لم نذكره ، اكتفاءً بما أدلينا به ، دليلٌ قاطعٌ على صحّة هذا الذي ذهبنا إليه .

ولكن أفدحَ آثار ذلك الغموض ، هو ما تذهبُ إليه عامّةُ المصادر التي عنيتْ بتاريخ المدينة قديمةً وحديثةً ، أنّ أُمراءها بني عمّار كانوا من المغاربة الذين قدموا "مصر" مع الخليفة الفاطميّ المُعزّ لدين الله (341. 365م / 975.952م) . وبالتحديد من بني كتامة البربر. القبيلة التي كوّنتْ نمطاً من الارستقراطيّة العسكريّة . السياسيّة في الدولة الفاطميّة بالمشرق .

منشأُ هذا الخطأ الشائع ، فيما نحسب ، أنه يوجد بالفعل من سادة بني كتامة في "مصر" أُسرةٌ تحملُ الاسم نفسه . ومنهم مَن شغلَ مناصبَ عاليةً

---

(10)انظر ، مثلاً : زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، ط . القاهرة 1951م / 160 .

(11)المُحدّث النوري : مُستدرَك الوسائل ، طبعةٌ حجريّةٌ مُصوّرة بالأوفست ، طهران 1383هـ : 3 / 499 . وآغا بُزُرك الطهراني : الذريعة إلى تصانيف الشيعة ، ط. بيروت دار الأضواء ، لات : 3 / 105 .

(12) المقريزي : اتعاظُ الحُنفا بأخبار الفاطميين الخُلفا ، ط . القاهرة 1948 م / 266 .

سياسيّةً وعسكريّة فيها . فلما رأى أحدُ المؤرّخين الاسمَ نفسَه علماً على الأُسرة التي حكمت "طرابلس" على عهد الفاطميين ، قال دون تمحيص أنّ هذه من تلك . وتناقلَ أشباهُ المؤرّخين من بعدهم وحتى زماننا هذه الفتوى الاعتباطيّة دون تدقيقٍ أو توثيق .

والذي نظنّه ، بل ونذهبُ إليه ، أنّ ذلك يتنافى مع كلّ ما نعرفه عن بني عمّار الطرابلسيين وسيرتهم وأعمالهم . بدليل :

. أولاً : أن بني عمّار الطرابلسيين أكتسبوا اسمهم من أسم جدّ أول أُمرائها عبد الله بن محمد بن عمّار، كما عرفنا . أمّا بني عمّار الكتاميين ، فيدلّ عديدهم الوافر في "مصر" على أنهم ينتسبون إلى عمّار آخَر هو أعرقُ بكثير من سميّه جدُّ الطرابلسيين .

. ثانياً : أنّ بني عمّار الطرابلسيين كانوا بالتأكيد شيعةً إماميين . بل إنّ أوائلهم على الأقلّ كانوا علماء فقهاء . أوْلَوا العلم اهتماماً خاصّاً ، ورعوا أهله رعايةً ممتازة . أمّا بنو عمّار الكُتاميّون ، فقد كانوا قادةً قبَليّين من رجال السيف . لم يُعرَف عنهم أدنى عناية بالعلم وأهله . وذلك أمرٌ طبيعيٌّ جدّاً بالنظر إلى غُربتهم وأُصولهم ولغتهم البربريّة . كما كانوا من أتباع المذهب الرّسمي للدولة الفاطميّة . أي شيعةً إسماعيليين بالتّحديد .

. ثالثاً : إن الكتاميين ، كما هو معروف ، قومٌ من البربر . قدموا مع الفاطميين من المغرب واستقرّوا في "مصر" في خدمتهم . ومن هنا فقد ربطوا مصيرهم بمصير هذه الدولة . لأنهم ، بسبب غُربتهم في منطقةٍ شاسعةٍ ذات تشكيلات سُكّانيّة قبَليّة راسخة قويّة ، لا سبيل إلى بقائهم أعزّاءَ الجانب إلا بالاستناد إلى مُستنَدٍ سياسيّ قاهر . ولذلك فإنهم لم يخرجوا على الدولة الفاطميّة لا سياسيّاً ولا حتى جغرافيّاً . وبقوا على ذلك إلى أن

انحلّتْ عُرى الرابطة القبَليّة التي جمعتهم ، بتأثير المُناخ المديني في وطنهم الجديد "مصر" ، وذابوا فيه . ومن هنا فليس من المُتصوَّر ، ولم يحدُث إطلاقاً ، أن أقدمَ أميرٌ منهم على فعلِ مثل ما فعله أبو طالب عبد الله ، فيُعلن انفصاله عن الدولة الأُمّ ، واستقلاله بمنطقة ولايته .

لكلّ ذلك فإننا نقول ، إن بني عمّار أُمراءَ "طرابلس" هم عربٌ أقحاح ، وبالتحديد من بني طيّ ، القبيلة القويّة والكبيرة ، التي كانت ذات حضورٍ سُكّاني بارز في أنحاء "الشام" و "العراق" . مُستندين فيما ذهبنا إليه إلى المؤرّخ المقريزي ، حيث ساق نسبَ كبير الأُسرة ومؤسّس سُلطانها أمين الدولة ابي طالب هكذا : " **عبد الله بن محمد بن عمّار بن الحسين بن قندس بن عبد الله بن إدريس بن ابي يوسف الطائي** " [13] . والمقريزي مؤرّخٌ خبيرٌ ذو مِراس . وُلد ونشأ في "بعلبك" وعاش وصنّف في"مصر" . وعرفها وأهلها معرفةً جيّدة . وكتب في تاريخها وناسها وخِططها كُتُباً معروفةً مُتداولةً مُعتمَدةً حتى اليوم . فلو ان القومَ كانوا كتاميين كما زعموا ، لَما خفي عليه ذلك ، ولَما ساق هذا النسب المُفصّل لأوّلِ أميرٍ منهم ، الذي يشهدُ على اطلاعٍ واسعٍ وأصيل.

والظاهر أن صعودَ أُسرة بني عمّار ، حتى وصلتْ إلى ما وصلتْ إليه ، قد بدأ من موقعِ زعامةٍ محلّيّةٍ مُتعدّدة الجوانب . فأبو طالب عبدُ الله ، الذي عرفناه أولَ أُمرائها، كان قاضياً. بدليل أنّ الكراجكي الطرابلسي ، الذي عرفه معرفة مُباشرة ، يُسمّيه في كتابه الذي صنّفه له هكذا :" **القاضي الجليل أبي طالب عبد الله بن محمد بن عمّار**" [(14)]. ولم يذكره بلقبه الرّسمي الذي اكتسبه بالإمارة فيما

---

(13) المقريزي / نفسه .

(14) مُستدرك الوسائل : 3 / 499

بعد:(أمين الدولة) . ذلك لأن الكراجكي توفي سنة 449هـ / 1057م ، وإعلان القاضي استقلالَ المدينة بإمارته لم يتمّ إلا في السنة 459هـ/ 1067م أو بُعيدَ ذلك. أي بعد وفاة الكراجكي بعشرسنوات تقريباً .

ولكنّ أبا طالب كان ، حتى قبل وصوله إلى الإمارة ، من الشخصيّات البارزة جدّاً في المنطقة الشاميّة عموماً ، وليس في مدينته حسبُ . عرفنا ذلك أنه في السنة 459هـ / 1067م توسّط لإنهاء النزاع الذي نشب بين أمير "حلب" محمود بن نصر المرداسي وبين الخليفة المُستنصر الفاطمي . حيث الخليفة أمر واليه على "دمشق" بدر الجمالي بمهاجمة "حلب" وإخضاعها . فنهض القاضي أبو طالب بالوساطة بينهما ، ونجح في إنهاء النزاع [15]. وبذلك جنّب المدينة شرّ الحرب .

ثم أن أحمد ، أخا أبي طالب ، كان أيضاً شخصيّةً بارزةً بروزاً مُتعدّدَ الجوانب في المدينة . فالكراجكي نفسه يقولُ في فاتحة كتابٍ صنّفه له : " **أمر بعمله الشيخ الجليل أبو الكتائب أحمد بن محمد بن عمّار**" [16] . والقارئ العارفُ سيُلاحظ هنا دون صعوبةٍ هذه المُزاوجة غير المألوفة بين لقبَي الرجل :"**الشيخ الجليل**" ، الذي يُفهم منه أنه كان فقيهاً كأخيه القاضي . و "**أبو الكتائب**" ، وهو لقبٌ ذو نكهةٍ عسكريّةٍ غير خفيّة . فهذا يدلُّ على الموقع المُتعدّد الجوانب الذي كان للأُسرة في "طرابس" ، بحيث أوصلها في النهاية إلى الإمارة .

كانت إمارةُ بني عمّار على "طرابلس" الفرصةَ التاريخيّةَ التي اهتبلتها المدينةُ حتى النهاية . في هذا الإطار السياسي المؤاتي تفاعلَ النهوضُ

---

(15) أبو المحاسن : النجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ط. مصر 1938م : 5 / 79 .

(16) واسم الكتاب (نهج البيان في مناسك النسوان) . مُستدرَك الوسائل : 4 / 497 .

.

التنموي ، الذي يعودُ الفضلُ فيه إلى موقع المدينة ، التي تستقرُّ على سهلٍ ساحليٍّ حسنِ الترويةِ خصيب ، فضلاً عن مينائها الطبيعي الممتاز، بالإضافة إلى علوّ همّةِ أهلها ومهاراتهم الزراعيّة والصناعيّة . ، مع السياسة الحكيمة الذكيّة لأمرائها الفقهاء المُستنيرين بني عمّار .

ولقد أغنانا النصُّ البارع لناصر خسرو عن الخوض في الصفات التنمويّةِ المُتقدّمة للمدينة . ولم يبقَ علينا إلا أن نُزاوجَه بالصفات الثقافيّة . خصوصاً وأننا إنما نخوضُ غُمارَ هذا التأريخ على سبيل التمهيد وإعداد القارئ للدخول في سيرة وأعمال عالمٍ جليل . وعليه فإننا سنُخصّصُ ما بقي من هذا الفصل للجانب الثقافي من ملامح العصر الذي عاش وعمل فيه الشيخُ ابنُ البرّاج .الأمر الذي يستدعي منّا العودةَ بالتاريخ الثقافي إلى مرحلةٍ سابقةٍ . ننفذُ منها ، عبرَ بيانِ التطوّرات الأساسيّة في هذا النطاق ، وصولاً إلى زمان صاحب هذه السّيرة .

(4)

من المعلوم أنّ الخصوصيّةَ الرئيسةَ في التشيّعِ الإماميّ هي في القولِ بأنّ فترةَ التشريع لم تنتهِ بوفاةِ الرسول (صلوات الله عليه وآله) . وأنّ الولايةَ على الأُمّةِ من بعده في التشريع والإدارة ،هي حصراً للإئمةِ الاثنى عشر المتوالين (عليهم السلام) . بهم يستمرُّ عمليّاً الوضعُ التشريعي والسياسي الذي كان قائماً طوال فترة البعثة النبويّة . ومن هنا ، فإنه طوالَ ما يزيدُ قليلاً عن القرنين الهجريّيَن ونصف القرن كان الأئمةَ بالنسبة لأتباعهم مصدرَ الأحكام والتوجيه والقيادة .

ولقد انتهجَ الأئمةُ منذ الإمام الباقر (عليه السلام) (95-114هـ / 713-732م) نهجاً رموا منه إلى تركيبِ ثقافةٍ صلبةٍ ، لتكونَ بديلاً عن

الثقافةِ السُّلطويّة المُتهالكة . من المعالم البارزة لذلك النهج العملُ الرّائدُ على تأسيسِ ورعايةِ مركزٍ فكريٍّ إعداديٍّ مُستقلٍّ ، في بُقعةٍ قصيّةٍ ، بعيدة عن عين السُّلطةِ ويدها . هي ما عُرف بعدُ وما يزال بـ مدينة " قُمّ" . حيث أعلامها الأشعريّون ، القادمون إليها من "الكوفة" ، نهضوا ، بالرعاية التامّة من الإمامين ، خصوصاً الإمام الصادق (عليه السلام) ، بعملٍ ريادي في تسجيل و نقدِ وتبويب الحديث. كان الفاتحةَ والعنوانَ لكلّ أشكالِ التطوّر الأساسيّة المنهجيّة التي تتابعتْ فيما بعد في هذا النطاق .

ثم أنهم منذ الإمام الكاظم (عليه السلام) على الأقلّ نهضوا بتنظيمِ أتباعهم المُنتشرين في شرقِ العالَم الإسلاميّ تنظيماً مُحكَماً . من أبرز مقاصده ، فيما يبدو لنا ، تقديمُ وتدريبُ قياداتٍ محلّيّةٍ ، تحت عنوان وُكلاء الإمام . إلى غير ذلك ممّا نجِدُ بعضَ آثاره ، ولا نعرفُ إلا القليلَ من معالمه . لأنه كان تنظيماً تحتيّاً مُغلّفاً بسِرّيّةٍ مُحكَمَة .

مع كلِّ ذلك وغيره ، ممّا يجبُ اعتباره عملاً إعداديّاً شاملاً ، ينظرُ إلى اليومِ الذي سيكون فيه على المؤمنين إدارة كافة شؤونهم بأنفسهم . ، فإنه بانتهاءِ فترةِ الحضور العلنيّ للأئمة (عليهم السلام) ، بالغيبة الكُبرى للإمام الثاني عشر (عليه السلام) ، بدأتْ فترةٌ بالغةُ الاضطراب . بحيثُ سُمّيتْ في أدبيّاتِ الأوان بـ (فترة الحَيْرَة) . إشعاراً بما دخل على الأُمّةِ من اضطرابٍ عميقٍ بسبب افتقاد راعيها . طالتْ زُهاء قرنٍ من الزمان .

من قلب هذا الاضطراب نهضتْ في "بغداد" مجموعةٌ من الأعلام الكبار. رائدهم الشيخ المفيد ، محمد بن محمد بن النعمان (433.334هـ /1022.935م) ثم من بعده تلميذه السيّد المرتضى ، علي بن الحسين الموسوي (433.355هـ/965 .1041م) ، ثم تلميذ هذا الشيخ الطوسي ،

محمد بن الحسن (385ـ460هـ/ 995ـ 1067م) . عملوا بالتوالي على رأبِ الصّدع العميق الآخذ في الاتساع . وأثناء ما يزيدُ على نصف قرنٍ
من العمل الدّائب والمنهجي في غير ميدان ، نجحوا نجاحاً باهراً في تجاوزالأزمة . بحيث أنه عندما توفي آخرهم كان التشيّع الإماميّ قد وصلَ إلى مُستقرّه الفكريّ كلاميّاً وفقهيّاً . ومن تلك النقطة تابع تطوّرَه الداخلي المُتواصل ، الذي مايزالُ عالقاً حتى اليومِ .

(5)

بُغيتنا من هذا السّرد البالغ الإيجاز أن نصِلَ إلى القول ، إن المنطقة الشاميّة الشاسعة ظلّتْ بمنأى عن ذلك الحِراك الفكري ، الذي استمرّ مُدّةً تزيد على القرن قبل أن يصِلَ إلى مُستقرّه . مع أنها كانت في ذلك الأوان ذات أكثريّةٍ سُكّانيّةٍ شيعيّة . ومع أنها أنجبتْ أنظمةَ حُكمٍ محلّيّةٍ قويّةٍ فاعلة . كما أنها لم تستفِدْ من نتائجه . ولم تُقدّم نُخَبُها الفكريّة مُساهمةً تُذكَر في التسامي بذاتيّتها الثقافيّة . فنحن لا نعرفُ أحداً من ابنائها قد شارك في النهضة التي قادها الإمامُ الباقر (عليه السلام) . ووصلتْ سريعاً إلى قمّة عظمتها وبهائها على يد ابنه الإمام الصادق (عليه السلام) . وأيضاً ليس في يدنا أيّ دليل على أنّ العمل التنظيميّ البارع والدقيق والمُتعدّد الجوانب ، الذي عرفنا أنه كان عالقاً بجهود وقيادة
الإمام الكاظم (عليه السلام) ، ثم تابعه من بعده الأئمة المتوالون . ، قد شملها بعنايته في مَن شمل . ثم أنه ما من أحدٍ من أبنائها ، فيما نعرف ، قد حقّقَ اتصالاً بالحِراك الفكريّ التاريخي الذي قاده ووجّهه أولئك الأعلام الثلاثة ،
حتى القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد . اللهم إلا الرائد الكبير محمد بن علي بن عثمان الكراجكي (ت:449هـ/1057م) ، الذي ستكون لنا عنده وقفة خاصّة ، ونحن نخفُّ السّيرَ في الطريق إلى عصر ابن البرّاج .

هذا الانكفاء المُتعدّد الجوانب والوجوه أدّى ، فيما أدّى إليه ، إلى أنّ التشيّعَ في "الشام" كان ، في الأعمّ الأغلب ، باهتاً خامداً لا حيويّةَ فيه ، عاجزاً عن المُبادرة . فلم يُنجبْ أدباً وفكراً يتناسبُ مع هُويته وحوافزه الفكريّة الأصيلة . نقولُ هذا مع علمنا بإننا لا نعدم إشاراتٍ عارضةٍ ذات نفَسٍ شيعيٍّ صريح ، عند كبار شُعرائه وأدبائه . مثل ابي العلاء المعرّي ، وأبي تمّام الطائي ، وأبي عُبادة البحتري ، وأُسامة بن مُنقذ الكناني . لها قيمتُها الدّلاليّة ولا ريب بالنسبة للباحث اليوم . ولكنها لم تَرْقَ إلى رُتبةِ التسامي بالثقافةِ الذّاتيّة المحلّيّة . أي إلى الوظيفة الأساسيّة للمثقف المُنتمي .

فهذا مُوجَزٌ ، أرجو أن يكونَ على حدّ الكفاية بالقصد ، لشيءٍ من تاريخ التشيّع في بلاد "الشام" ، سُقناه على سبيل إعداد القارئ لفهم العصر الذي عاش وعمل فيه الشيخُ ابنُ البرّاج . نختمهُ بالقول ، إنّ هذا النمط من التشيّع ما يزال حتى اليوم هو النمطُ الغالب في رُقعةٍ واسعةٍ من مواطن التشيّع التاريخيّة . ينتشر أتباعُهُ في بعض "الشام" و "الأناضول" و"الجزيرة الفُراتيّة" و"ألبانيا" ، بعد أن اكتسب اسماً جديداً نسبيّاً هو العلويّون والبكتاشيّون .

(6)

لكنّ قصّةَ التشيُّع في بلاد الشام لم تتوقّف عند حدود تلك القراءة . وإنما اتخذتْ من بعدُ منحىً جديداً تماماً ، يجبُ اعتباره منعطفاً كبيراً جدّاً في حضور التشيّع وتوجّهاته إجمالاً . ليس في هذه المنطقة وحدَها ، بل في الحضورالعام والتوجّهات المُستقبِلة إجمالاً . أعني بذلك إحياءَ وتجديدَ التواصلِ مع "العراق" ، ومع ما جدّ فيه من إيصالِ التشيّعِ إلى مُستقرّه الفكري كلاميّاً وفقهيّاً على أيدي أولئك الأعلام الثلاثة . الذي نعرفُ أنه كان باباً مُشرَعاً على تطوّراتٍ مُتلاحقة ونهضاتٍ فكريّةٍ مُتعاقبة . وهذه قصّةٌ كبيرة ذات حُبكةٍ مختلفةٍ تماماً . تتابعتْ

فصولُها وهي تتحرّكُ في مواطنها المُتعدّدة : "طرابلس" و "حلب" فـ "جبل عامل" فـ "إيران" فـ "آسية الوسطى" و "الهند" . تاركةً حيثما حلّتْ أثراً باقياً

نامياً . كلٌّ موطنٍ منها يستحقُّ أن يكونَ موضوعاً بديعاً لبحثٍ مُستقلٍ . يحكي في فصوله المُتتابعة قصّةً من أروع مغامرات الفكر ، وهو يتحرّكُ وينتشرمُبدّلاً المصائر . وقد درسنا موطنيَن اثنيَن منها في كتابينا (جبل عامل بين الشهيديَن) و (الهجرة العامليّةُ إلى إيران في العصر الصّفوي ، أسبابها التاريخيّة ونتائجها الثقافيّة والسياسيّة) . ونسأل المولى سبحانه أن يُمدّنا بما يُيسّر مُتابعة العمل .

إنّ أعجبَ ما في هذه القصّة أنها ، على كِبَرِها وبعيدِ أثرها ، قد بدأتْ بمُبادرةٍ من شخصٍ وحيد . هو أبو الفتح محمد بن علي بن عثمان الكراجكي الطرابلسي (ت:449 / 1057م) . الذي كان أوّلَ مَن أسّسَ أساسَ الرحلةِ إلى "العراق" من غرب "الشام" في طلب العلم ، حيث يجبُ أن يُطلَب . ولكنّ قيمةَ المُبادرات ليس دائماً في حجمها وعديد أصحابها ، وإنما أيضاً ، وربما أوّلُ ، في إصابتها الهدفَ والمَرمى . هي ، هنا ، في تلبيتها حاجةَ التشيّع بطوره المُستجدّ في "العراق" إلى الانتشارحيث يحسُنُ به أن ينتشر ، شأنَ كل تجديدٍ فكريّ أصيل . وفي الآن نفسه ، في تلبيتِها حاجةَ التشيّع في "الشام" إلى وصْلِ ما قطعته عوادي الزمان مع أصله ومنبته . أي ، إن شئنا وضعَ الحقيقةِ التاريخيّةِ في

قالبٍ شعريّ : من حنينِ الأصلِ إلى فرعه ، ومن حنينِ الفرعِ إلى أصله . إذن ، فقد كانت في الحقيقة تعبيراً صِحّيّاً عن ميلٍ كامنٍ مُزمِنٍ لدى التشيّع بجناحيَه إلى التكامُل . التقطها الكراجكي ونجح في التعبير عنها بخطوته العبقريّة ، يومَ شدّ الرّحال إلى "بغداد" دونما سابقةٍ من مثلها . ثم تابعَ العملَ بدأبٍ وحضورٍ مُدهشيَن على استثمارها . مُتنقّلاً بين حواضر "مصر" وجنوب "الشام" وغربه وشماله.

مالئاً الدنيا وشاغلاً الناس حيثما حلّ بمحاوراته وتصنيفاته . خصوصاً بعد أن

استقرّ به المقام في خواتيم حياته في مسقط رأسه "طرابلس" ، التي جعل منها بمثابة نقطة انطلاق ، مُتحرّكاً منها في قوسٍ كبير، طرفاه مدينتا "طبريّة" جنوباً و "حلب" شمالاً . بانياً شبكةَ علاقاتٍ واسعة بمختلف أطياف المُجتمع ، على طول الساحل الغربي للبحرالأبيض المتوسط ، من "طرابلس" شمالاً ، حتى "صور" جنوباً . فكتب لهم ، وأرشدهم ، وعالجَ هواجسهم ، وأجاب عن أسئلتهم ، ولبّى مطالبهم . وتلك سابقةٌ بالنسبة لأهلها ، لم يُجرّبوها ولم يتمتّعوا بمثلها ولا بما يُشبهها من قبل . وهذا مؤشّرٌ وافٍ إلى اتساع رؤية هذا الرائد الكبير . وكدحِه دون مللٍ أو كللٍ في سبيل ما يرى فيه وظيفته بين الناس .

ولتكُن هذه الإشارتُ المُتواليةُ السريعة البالغة الإيجاز إلى السيرةِ الرّائعة للكراجكي، التي أتوقّع أن تُحرّك أشواقَ القارئ الطُّلعة إلى المَزيد ، دعوةً له إلى قراءة كتابنا (الكراجكي ، عصره ، سيرته ، عالمه الفكريّ وأعماله ، مُصنفاته) ، حيث فصّلنا القولَ فيما أجملناهُ هنا تفصيلا.

أعتقدُ أنّ القارئ قد أصبحَ الآن بكامل الاستعداد لتقبّل ما أُريدُ أن أصِلَ إليه من وراءِ هذا السّرد . بل رُبّ قارئٍ حصيف ، حتى وإن لم يكُن يعرفُ إلا القليلَ من سيرة ابنِ البرّاج ، سيسبقُ بذهنه إلى القول أنه ، أعني ابنَ البرّاج ، لم يكُنْ إلا ثمرةً مُتقدّمةً كبيرةً ناضجةً يانعةً من ثمار بادرةِ وأعمالِ سلفه الكبير .

—

في السّـيرة

1 ـ الاسـمُ والمولد والنشـأة .
2 ـ في التحصيلِ والطّلَب .
3 ـ وفاته ومَدفنه .

1 . الاسمُ والمولدُ والنشأة

من المُعتاد لدى كُتّابُ السّيرة أن يخصّوا كلاًّ من هذه الثلاثة من شؤونها وعناوينها بعنايةٍ وبحثٍ خاصٍ به . وذلك أمرٌ حسَنٌ يُساعدُ القارئَ على تركيز الانتباه على الموضوع الذي يقرأه . ولكننا آثرنا إجمالَها هنا تحت عنوانٍ واحدٍ ، لا لشئ إلا لأننا لا نملكُ الكثيرَ مما يمكن أن يُقال تحت هذا العنوان أو ذاك من تلك الثلاثة ، بسبب عَوْلِ المعلومات عن الأسئلة التي تطرحها سيرته ، بل سيرةُ أيّ إنسان . ثم أننا ، للسبب نفسه ، سنضطر إلى الإفادة من بعض ما تحت عنوانٍ في حلّ إشكاليّةٍ في غيره . والدمجُ يجعلُ ذلك أكثر سُهولةً .

(1)

واسمُ صاحب السّيرة ، كما جاء في أقدمِ مصدريَن ترجما له ، هما (معالم العلماء) لابن شهراشوب المازندراني (ت: 588هـ / 1192م) [1] ، و(فهرست أسماء مشايخ / علماء الشيعة ومُصنّفيهم) [2] لمُنتجَب الدين علي بن بابويه الرازي (ح : 585 هـ / 1189 م) . ، هو "أبو القاسم عزّ الدين عبد العزيز بن نحرير بن عبد العزيز" . أضاف الأوّلُ في نهاية السلسلة قوله : "المعروف بابن البرّاج" . واكتفى الثاني بالقول في الموضع نفسه :"ابن البرّاج" . ومن الواضح أنّ هاهنا فرقٌ . فعلى قول الأوّل تكونُ "البرّاج" لقباً لوالده نحرير. أمّا على قول الثاني فيُمكن أن تكون لقباً لوالد جدّه الذي لا نعرفُ له اسماً . هذا إذا افترضنا القصْدَ عند كلٍّ منهما ، كما تقتضي قاعدةُ أصالة الصحّة في النص .

---

(1) ابن شهرآشوب المازندراني : معالم العلماء ، ط . بيروت ، دار الأضواء ، لات / 80 .

(2) مُنتجَب الدين : الفهرست ، ط . قم 1366 هـ . ش بتحقيق جلال الدين المُحدّث / 74 .

وإذا كان علينا أن نُفاضِلَ بين العبارتيَن ، فنختارَ أَوْلاهما عندنا بالاعتبار ، فإننا نقول ، إننا نميلُ إلى الأخذ بالصيغة التي أتانا بها ابنُ شهرآشوب . لا لشئ إلا لأنه عاش السنوات الأخيرة من عمره ومات في "حلب". ثم أنه صنّف كتابه بعد زُهاء نصف قرن من وفاة ابن البرّاج . أي أنه أقربُ من الرّازي مكاناً وزماناً إلى البيئة والعصر اللذين عاش فيهما ابنُ البرّاج . إذن ، فهو بالنتيجة أقدرُ على أن يصوغَ انطباعاته عنه صياغةً أكثر دقّةً . أمّا مُنتجب الدين فقد عاش في "إيران" ، بعد ابن شهراشوب . وذلك اعتبارٌ مُستنديٌّ حريٌّ بالاعتبار في الموازنة . والظاهر أنّ كتاب ابن شهراشوب كان بين يدي مُنتجب الدين وهو يخطُّ كتابه [3] . وستظهرُ فائدةُ هذا التدقيق بعد قليل .

نُشيرُ في ختام هذه الفقرة ، إلى أنّ كاظم مدير شانه جي ، مُحقّق كتاب ابن البرّاج (شرحُ جُمَلِ العلم والعمل) ، قال في المقدمة التي وضعها للكتاب بالفارسيّة ما ترجمته :" **يمكن أن نستنبطَ من اشتهار القاضي بابن البرّاج ، أنّ البرّاج [كان] من كبار ومشاهير زمانه ، بحيث أنّ القاضي صار مُشتهراً به**" [4] . وهو استنباطٌ واهٍ وفي غير محلّه. لأنّ الوصفَ "البرّاج" لا يدلُّ على أكثرِ من المهنة التي كان الرجل يمتهنها ، وسنقِفُ عندها في المحلّ المُناسب . وهذا ومثله كثيرٌ في أسماء العرب ، خصوصاً في المنطقة الشاميّة (الحدّاد ، الصائغ ، النجّار، الميقاتي . . . . الخ.) . وأظنّ أنه لو تأمّلَ في اسمه هو (شانه جي) لَتردّدَ على الأقلّ قبل أن يخرجَ على قُرّائه بهذا "الاستنباط" الضعيف . الأمرُ الذي لا ريب فيه ، أن ابن البرّاج لم يكُن من أسرةٍ ذات شأن ، وأنّ والده لم يكن من كبار ومشاهير

---

(3) انظر ملاحظة المُحدّث الأرموي مُحقق الفهرست بهذا الشأن في المقدمة التي وضعها للكتاب / 25 .

(4) ابن البرّاج : شرح جُمل العلم والعمل ، بتحقيق شانه جي ، ط . مشهد 1352 هـ . ش / 4 .

زمانه . وإنما برُز بسعيه وجِدّه من بين الغُمار .

(2)

إن أعلى مصدرٍ يعرضُ لمولده ومنشئه هو (رياض العلماء وحياض الفضلاء) لعبد الله أفندي الإصفهاني الجيراني (ت: 1130 هـ / 1717م) ، حيث قال :" **وكان مولده [يعني ابنَ البرّاج] بمصر وبها مَنشؤه** " [5] . مُسنداً قوله إلى "**بعض الفُضلاء**" . وعنه سرى القولَ إلى المُحدّثُ النوري [6] ثم السيّد حسن الصّدر[7] وغيرهما . و السّندُ الذي أورده واهٍ ، خرج به عبد الله أفندي على نفسه ، وهو الذي نعرفه أكثر دقّةً فيما يرويه . ولسنا نعرفُ مَن هو ذلك "الفاضل" الذي نسبَ إليه هذا الرأي غير المسبوق ، في مَفْصلٍ هامٍّ من مفاصل سيرة الرجل . وما الذي حالَ بينه وبين التصريح باسمه على خلافِ عادته غالباً ، إن كان حقّاً من "**الفضلاء**" .

مثلُ هذا القول صدر عن عبد الله أفندي أيضاً فيما يخصُّ سلفَ ابن البرّاج أبا الفتح الكراجكي الطرابلسي . قال :

" **أسماءُ الذين قرأوا على السيّد المرتضى : أبو يعلى سلاّر بن عبد العزيز ، وكان من طبرستان [. . . .] وأبو الفتح الكراجكي من ديار مصر** " [8] .

هكذا يبدو لنا الأفندي مولعاً بتأصيل أعلام "طرابلس" في "مصر" ،

---

(5) رياض العلماء ، ط. قم 1401 هـ بتحقيق السيّد أحمد الحسيني : 3 / 143 .

(6) مُستدرَك وسائل الشيعة : ، ط . طهران على الحجر ، طبعةٌ مُصوّرةٌ عن طبعة سنة 1321هـ : 3 / 481 .

(7) تأسيسُ الشيعة لعلوم الإسلام ، ط . بيروت 1401 هـ/1981 م / 304 .

(8) رياض العلماء : 4 / 16 . 17 .

لسببٍ غير معروف . ونحن ، وإن نكُن نرتاب في صحّة نقله في الحالتيَن ، فإننا لانجدُ سبباً خاصّاً لولعه هذا . كلُّ ما في الأمر ، فيما نظن ، أنه لم يكُن يستندُ إلى معرفةٍ كافيةٍ بهُويّة القطريَن والخصوصيّات الثقافيّة لكلٍّ منهما. ولعلّه كان يحسَبُ أنّ "مصر" كانت أقربَ إلى التشيّع من "طرابلس" في ذلك الأوان الذي شهد فجرَ انبعاثها الثقافي . وأقدرَ بالتالي على أنجاب ذينك العلميَن وأمثالهما .

وعلى كلّ حال ، فإنّ من المعلوم أن "مصر" في ذلك الأوان كانت إسماعيليّةً رسميّاً ، ذات أغلبيّةٍ سنّيّةً شافعيّةً شعبيّاً . ولم نعهد أنها أنجبتْ من قبلُ ومن بعدُ فقهاء إماميين . دون أن يعني ذلك أنه لم يكُن فيها أحدٌ منهم . بل العكس هو الصحيح . وإنما أنها لم تكُن في وضعٍ آهلٍ لأن تُنجبَ فقهاء إماميين ، سواءٌ بالنظر إلى حجم الحضور الشيعي الإماميّ فيها ، أم بالنظر إلى المُناخ الفكري العام وتجلّياته العمليّة .

لذلك فإننا لا نجِدُ فيما أتانا به الأفندي سبباً كافياً للبحثِ عن مولد ابن البرّاج ونشأته الأُولى في غير البلد الذي ارتبط به كلُّ ما نعرفه من سيرته ، باستثناء فترة الطلب طبعاً ، أي "طرابلس" . وإلى مثل هذه النتيجة وصل الشيخ جعفر السبحاني في المقدّمة التي وضعها لكتاب (المُهذّب) لابن البرّاج [9] . وفي الترجمة التي علّقها له في كتابه (تذكرةُ الأعيان) [10] .

فذلك ما يُمكنُ أن يصِلَ إليه التأمّلُ في شقِّ المكان من مَولدِ ابن البرّاج ، في غياب النصّ المُبين . يبقى القولُ على شقّ الزمان .

هذا أيضاً ما من نصٍّ صريحٍ عليه . لكن يُقالُ كثيراً في المصادرأنه وُلد

---

(9) ابن البرّاج : المُهذّب ، ط . قم 1306 هـ ، المقدمة / لز .

(10) جعفر السبحاني : تذكرة الأعيان ، ط . قم 1419 هـ / 82 .

في حدود سنة 400هـ / 1009م . وذلك استناداً إلى أنه يوم توفي كان "**قد نيّف على الثمانين**" [11] ، مُقارناً بتاريخ وفاته . و "نيّفَ" تعني : زادَ . ولا تُقالُ إلا بعدَ العَقْد . وكلّ ما زاد على العَقْد فهو نيْفٌ إلى أن يبلغ العقْدَ الثاني . وهذا يتركُ المتأمّل أمام احتمالاتٍ واسعة . تجعلُ من المُمكن أن يهبط تاريخُ مولده كثيراً عن السنة 400هـ ، وصولاً إلى السنة 410 هـ / 1019م . إذن ، فبناءً عليه وأيضاً بناءً على أصالة الصحّة في النصّ ، فإنّ الأحرى بنا أن نقول ، استناداً إلى النصّ نفسه ، أنه وُلِد أثناء العقد الأول من القرن الخامس للهجرة / العقد الثاني من القرن الحادي عشر للميلاد .

(3)

أمّا فيما يرجعُ إلى مكان نشأته . فقد وقفنا قبل قليل على نصّ الأفندي ، ومنه قوله : " وبها [أي بـ "مصر"] منشؤه" وناقشناه . ولكن ما يدعونا إلى العودة إلى الإشكاليّة الآن ، نصٌ آخرَ مُختلفُ الدلالة نجِدهُ عند الأفندي نفسه يقول أنه ، أي ابن البرّاج ، بعد أن : " **أكمل قراءته على الشيخ الطوسي وعادَ إلى طرابلس** . . . الخ. " [12] . وهو يرويه عن "بعض الفضلاء" أيضاً . ولا ندري هل هو صاحبُ النصّ السابق أو غيره . المُهمّ أنّ في قوله "وعادَ" تلميحٌ في قوّة التصريح إلى أنه كان في "طرابلس" قبل رحلته إلى "بغداد" . والظاهرُ أنّ الأفندي لم يلتفت إلى ما بين النصّيَن من تهافت ، وإلا لأعملَ قلمه في نقدهما ، وبيانِ أو توجيهِ ما بينهما من اختلاف . ما يهمنا الإشارةُ إليه ، أنّ هذا النص دليلٌ على ارتكازٍ في ذهن صاحبه أن الرجل طرابلسي النشأة ، أو أنه ، على الأقلّ ،

---

(11) التفرشي : نظام الأقوال ، ط . طهران 1382هـ / 165 .

(12) رياض العلماء : 3 / 142 .

انطلق إلى "بغداد" من "طرابلس" بعد أن كان مُقيماً بها ، وإلا لَما صحّ منه أن يقول "وعادَ" . والخبير بمعالجة النصوص ، يعرفُ جيّداً أنّ مثلَ هذه العباراتِ العَرَضيّة تحملُ دلالةً لا تقلُّ قوّةً عن التنصيص ، إن لم تزِدْ . لأنها مبنيّةٌ على ارتكازٍ ثابتٍ في ذهن صاحبها .

(4)

هاهنا أمرٌ آخَرُ يُشيرُ إلى الاتجاه نفسه الذي انتهينا إليه من نقد نصوص الباب . لكنه خبيءٌ هذه المرّة في لقب والده "البرّاج" ، حيث لا تلمحه إلا العينُ الخبيرة ، العارفة بأسرار الحضارة والثقافة في المنطقة الشاميّة .

من المعلوم أنّ هذا اللقب / الوصف هو من أسماء المِهَن ، التي نعرف أنها شائعةٌ في أسماء الأسرات فيها ، أي في المنطقة الشّاميّة ، خصوصاً في الأوساط المدينيّة ، حيث تسودُ علاقاتُ إنتاجٍ عمادُها العملُ والحرفة. في حين أنّ الأكثر في "إيران" ، مثلاً ، حتى اليوم ، النسبةُ إلى البلد الذي وُلدَ أو عاش فيه صاحبُ الاسم . والظاهر أن هذا التقليد يرجعُ إلى الحقبة التاريخيّة التي كانت "إيرانُ" فيها تحت حكم الطوائف ، قبل أن يُعيدَ الصفويّون توحيدها سياسيّاً . حيث كانت كلُّ مدينةٍ كياناً سياسيّاً قائماً بذاته . فكأنّ الاسمَ في الحالتيَن بطاقةُ تعريفٍ شاملة ، تأخذُ في الاعتبار ضميمةً ما هو الأولى بحسب المنظور الاجتماعي أو السياسي ، أي إمّا المهنة وإمّا اسم البلد في المثاليَن .

نأتي الآن إلى "البرّاج" .

هذه الكلمة هي اسم فاعل من أمثلة المُبالغة مُشتقّةٌ من (البُرج) . وهو بناءٌ حصينٌ على أو قريبٌ من ساحل البحر ، وظيفتهُ خفارةُ الساحل وحماية المقاتلين من الأعداء المُغيرين في السُّفُن . وقد عرفنا ممّا فات قبل قليل أن أصلَ "طرابلس" الرُّوميّة ثلاثة حصون . ومثلها كان كثيراً على طول الساحل . ما تزالُ

آثار وجودها ، حتى بعد اندثارها ، في أسماء المحالّ . من ذلك "ساحةُ البُرج" في "بيروت" ، و "بُرجُ البراجنة" في ضاحيتها الجنوبيّة" ، و "بُرج حمّود" في ضاحيتها الشرقيّة ، و"بُرج المعشوق" في "صور"، إلى غير ذلك . وفي "طرابلس" حتى اليوم ثلاثة بروجٍ قائمة ، هي "بُرجُ الأمير برسباي" ، و"بُرجُ الأمير أيتمش" ، و "بُرج الأمير قايتباي" . إذن ، فـ "البرّاج" هو الذي يعملُ في الأبراج بنحوٍ أو غيره . وهو نسبةٌ نادرةٌ جدّاً ، بحيثُ أننا لم نجِدُ لها ذكراً في الكتُب المعنيّة بالأنساب . وأهمُّها (الأنساب) للسَّمعاني ، و(لُبّ اللباب في تحرير الأنساب) للسيوطي . نعم ، وردتْ مرّةً واحدة في (تكملة الإكمال) لقباً لمُحدّث هو يحيى بن أحمد البرّاج (ت: 572هـ / 1176م) وابنه المُحدّث أيضاً أحمد بن يحيى بن البرّاج (13) . ولسنا نعرف ما يُذكر عنهما ، سوى أنهما مُعاصران لصاحبنا . ولكنّ مشيختهما ، على ما يذكره المصدرُ ، تشهدُ بأنهما شاميّان .

الدّلالة في هذا ، بالنسبةِ للإشكاليّةِ التي نُعالجها الآن ، ونقولُ ، على سبيل التذكير ، أنها مولدُ ابن البرّاج ومَنشؤه . ، هي في هذه النُّدرة . ذلك أن تلك الأبراج تكادُ تكون خصوصيّةً شاميّة ، لأن سواحل غرب "الشام" هي أطولُ ثغرٍ بحريٍّ في المشرق الإسلامي ، فضلاً عن أنه كان عُرْضةً لغزواتِ السفنِ الرّوميّةِ له ، بسبب قُربه من بلادهم آنذاك ، ولذلك كانت محلّ رباط ومقصدّ المُرابطين ، فكثُرتْ فيها الأبراج ، وبالتالي بعضُ المِهَن المُتعلقة بها . ولم نجِدْ في "مصر" ذكراً إلا لبُرجٍ واحدٍ في "الإسكنريّة" ، اسمه "بُرج السلطان قايتباي" ، الذي يرجعُ بناؤه إلى العصر المملوكي ، أي بعد زمان ابن البرّاج بقرون . فمن هنا كان اسم (البرّاج) شاميَّ النكهة . ولم يُعهَد في "مصر" أحدٌ من حامليه .

---

(13) ابن نقطة الحنبلي : تكملة الإكمال ، ط . مكة بتحقيق د. عبد القيّوم عبد رب النبي 1408هـ/1987م : 1 / 278 .

(5)

خلاصة القول على مَنبتِ ابن البرّاج ومولدِه ونشأتِه ، أنّ كلّ ما عندنا يدلُّ على أنه طرابلسيّ من أُسرةٍ طرابلسيّة . بشهادة لقب والده ، الذي ليس لقباً ممّا نجدُهُ ونعهدُهُ في "مصر" ، وأيضاً بشهادة أنّ كل ما نعرفه من سيرته مُتصلٌ بهذه المدينة . وما من وجهٍ على الإطلاق لِما أتانا به عبد الله أفندي ، أنه مصريّ الأصل . فورّط الباحثين من بعده بقولٍ لا دليلَ عليه . كما فعل بالنسبة لسلفه الكراجكي .

—

2 . في التحصيل والطّلَب

(1)

ألمحنا فيما فاتَ في الفصل الأوّل إلى أعمال الشيخ المُفيد في علاج أزمة التشيّع ، أثناء الفترة الانتقاليّة ، التي بدأتْ بعد انتهاء فترة الحضور العلنيّ للأئمة (عليهم السلام) .

ولقد كان من آثار أعمال الشيخ ومبادراته في هذا النطاق طوالَ عدّة عقودٍ من العمل الدّائب ، أن غدتْ "بغداد" في زمانه مقصداً للدّارسين الشيعة ، القادمين من مُختلف الأقطار للقراءة عليه . ولنُلاحظ هنا أن هذا بنفسه إنجازٌ كبيرٌ بالنسبة للتشيّع في "العراق" ، لم يسبقه إلا "الكوفة" لفترةٍ قصيرةٍ بفضل الإمام الصادق (عليه السلام) . وكان من الوافدين إليها الرّائدُ الكبيرمحمد بن علي بن عثمان الكراجكي الطرابلسي (ت:449هـ / 1057م) . الذي كان أوّلَ مَن خرجَ من غرب "الشام" قاصداً "بغداد" ، حيث استقرّ فيها مُتتلمذاً للشيخ مدّة سبع أو ثماني سنوات [1] .

المُهمّ بالنسبة لبحثنا أنّ ابن البرّاج كان ثاني الرّائدَين .

لكننا قبل أن نبدأ تتبّع خُطاه في "بغداد" ، علينا أن نًُشيرَ إلى تحفُّظَين اثنيَن:

. الأوّل : من المؤكّد أنّ ابن البرّاج لم يُدرك الشيخ المفيد بوصفه تلميذاً له. وذلك خلافاً لمحمد هادي الأميني ، الذي نظمه في عِداد تلاميذ الشيخ [2] .

. الثاني : تساؤلٌ يدورُ على موقع ابن البرّاج في هذه الرّيادة . فهل كان بالفعل ثاني الرائدين ؟

منشأُ التساؤل فقيهٌ طرابلسيٌ لا نعرف عنه ما يُذكر، هو الحسين بن عبد

---

(1) كتابنا : محمد بن علي بن عثمان الكراجكي ، ط . بيروت 1431هـ / 2010م / 53 ـ54 .

(2) الأميني : مُعلّمُ الشيعة الشيخ المُفيد ، ط . بيروت 1413هـ / 1993م / 117 . 18 .

الله بن أبي كامل الطرابلسي ، الذي كان حيّاً في السنة 410هـ/1019م ، أي قبلَ وفاة الشيخ المُفيد بثلاث سنوات على الأقلّ . يذكره الكراجكي بمناسبة أنه التقى به في مدينة "الرّملة" الفلسطينيّة تلك السنة . فعامله مُعاملةَ شيخٍ ، فسمع منه وروى عنه حديثَيَن أثبتهما في كتابه (التفضيل) [3] ، المعروف أيضاً باسم (الرسالة العلويّة) . وفي هذا دليلٌ على أن ابن أبي كامل ، هذا ، كان فقيهاً ومُحدّثا ذا مكانة . ممّا يتركنا على شبه الاعتقاد بأنه هو أيضاً تلقّى في "بغداد" ، لا لسببٍ إلا لأنها كانت في ذلك الأوان الآهلةَ وحدَها لتخريج مَن مثله من العلماء . ولكن لا نصّ على ذلك من قريبٍ أو بعيد . وفي المُقابل فإنه من غير السّهلِ أن نتصوّرَ أنّ فقيهاً مثله ، ينتقلُ إليها ، أي إلى "بغداد" ، ويدرسُ فيها ، ثم يعود إلى وطنه ليكونَ له فيه مثل ما استوحينا من سَماعِ الكراجكي منه ، ولا يكون له ذكرٌ في عِداد تلاميذ الشيخ أو بأيّ سببٍ آخر، اللهمّ إلا تلك الإشارة الظّرفيّة لدى الكراجكي . ولذلك فإننا رأينا أن نُسجّلَ له هذا التحفّظ حفظاً لحقّه ، وإنْ يكُنْ على نحو الاحتمال .

(2)

هناك روايةٌ منقولة مُتدوَالة ، يبدو أنّ أصلَها عن عبد الله أفندي الإصفهاني، ودائماً عن "بعض الفُضلاء" ، تقول :

" إنّ ابن البرّاج قرأ على [السيّد] المُرتضى في شهور سنة تسعٍ وعشرين وأربعمائة إلى أن مات المُرتضى وكمّل قراءته على الشيخ الطوسي " [4] .

والظاهرُ أنّ هذه الرّواية هي الوحيدة التي تؤرّخُ لهذا الجانب الهامّ من سيرته

---

(3) الكراجكي : التفضيل ، نشرة بُنياد بعثت باعتناء المُحدّث الأُرموي 1403هـ / 14 و 21 .

(4) رياض العلماء : 3 / 142 .

الحافلة . ولذلك فقد أخذ بها كُتابُ سيرته . ومنهم الشيخ السبحاني في المقدّمة التي كتبها لـ كتاب (المُهذّب)لابن البرّاج [5] . بل وبنى عليها أنه عندما انضمّ إلى حلقة أستاذه هذا كان ابن ثلاثين سنة . وما من سببٍ موضوعيٍّ عندنا للرّيب بصحّةِ الرّواية ، سوى عنوانها الاستفزازي :" **وقال بعضُ الفضلاء**" . وعلى كلّ حال ، فإنه ، حتى بغيابها ، فإن بدءَ دراسته على أُستاذه الأوّل لا بُدّ أن تكون ما بين السنتيَن 413هـ/ 1022م ، أي سنة وفاةِ الشيخ المُفيد ووراثةِ السيّدِ المُرتضى كرسيَّ التدريس ، والسنة 436هـ/ 1044م ، سنةَ وفاة المُرتضى . مع ضرورة طَرْحِ بضع سنوات منها ، هي مُدّةُ الدّراسة . لكن استفادةَ أنه كان إذ ذاك في الثلاثين من العُمُرِ أمرٌ آخَر . لأنه يتوقّفُ على أنه وُلد في السنة 400هـ/1009م . وقد ناقشنا في ذلك قبل قليل .

المُهمُّ الآن أنه درسَ على السيّد المُرتضى ثماني سنوات ، عند مَنْ يأخذ بروايةِ الأفندي ، التي قلنا أنه ما من سببٍ موضوعيٍّ عندنا للرّيب بصحّتها . أثناء هذه المُدّة كان الشيخُ الطوسيُّ رفيقَ درْسه . حيثُ تأسّستْ بين الاثنين علاقةٌ متينةٌ دامت حتى بعد افتراقهما طيلة ما بقي من حياة الطوسي (ت: 460 هـ / 1067م) . أي ما يزيدُ على عقديَن من الزمان . وكان من آثارها ما نزال ننعُمُ ببركته وثمراته حتى اليوم . وسنقفُ عليه أيضاً إن شاء الله فيما سيأتي .

ولقد كان من خطّةِ الأستاذ أن يرزقَ تلاميذَه ، وربما خواصَّهم أو المُتقدّمين في الدّراسة منهم ، راتباً شهريّاً يُغنيهم عن السّعي في شؤون معاشهم . هو بمثابة منحة تفرُّغ ، كما نقولُ اليوم . كما كان الرّاتبُ يتفاوتُ بحسب أسبقيّة الطالب أو تقدّمه أو كفاءته . فكان راتبُ ابن البرّاج ثمانية دنانير ، وراتبُ الشيخ الطوسي

---

(5) المُهذّب : 1 / لح .

اثنى عشر ديناراً . ويؤخذُ من ذلك أن ابن البرّاج كان يأتي بالدرجة الثانية عند أستاذه الجليل بعد الشيخ الطوسي . ولا غرو في ذلك ولا عجب ، فهذا أكبرُ سنّاً وأقدمُ هجرةً بما يزيدُ قليلاً عن عشرين سنة قمريّة [6] .

سنة 438هـ/1046م غادر "بغداد" نهائيّاً متجهاً إلى وطنه "طرابلس" ، حيث أمضى ما بقي له من العُمر ، مُنصرفاً ، بقدر ما نعرفُ ، إلى التدريسِ والتصنيفِ والقضاء . وسنفرغُ فيما سيأتي إن شاء الله للكلام على كلٍّ من هذه الشؤون الثلاثة .

---

(6) المعروف أنّ الشيخُ الطوسي هاجر من بلده "طوس" إلى "بغداد" سنة 408 هـ / 1017م . أمّا ابنُ البرّاج فقد عرفنا ممّا فات قبل قليل أنه هاجر إليها سنة 429 هـ / 1037 م .

—

3 . وفاته ومَدفنه .

توفي في "**طرابلس**" **ليلةَ الجمعة لتسعٍ خلونَ من شعبان سنة إحدى وثمانين وأربعمائة**" / تشرين الثاني ، أكتوبر 1088م . كذا قال عبد الله أفندي ، ودائماً أيضاً عن "**بعض الفضلاء**" [1] . وهو النصُّ الوحيد ، بقدر ما بحثنا ، الذي يؤرّخ لوفاته . ولكنه تأريخٌ دقيق ، يدلُّ على اطّلاعٍ وافٍ لدى المصدر الذي أخذ عنه . ممّا يزيدُ من عجبنا لإغماضِ أصله ومصدره ، ما دام على هذه الدرجة من الدقّة وحُسْن الاطلاع . ومن هذا نعرفُ أنه أقام في "طرابلس" زهاء ثلاثٍ وأربعين سنة قمريّة . كان أثناءها نُقطةَ الدائرة ، ومَدَارَ النشاط الفكريّ الذي دخلتْ المدينةُ عن طريقه التاريخَ من أوسع الأبواب . قبل أن تُقصَمَ بالاحتلال الصليبيّ لها . وبذلك ضاع تاريخٌ مُشرقٌ بأكمله . لو انه استمرّ وتوالد ، كما هو مُقتضى الأمور، لَما كان على المنطقة أن تنتظر ثلاثة قرون لكي تُعيدَ بناء ذاتيّتها الثقافيّة ، على يد وبفضل ابنها الشهيد الأوّل محمد بن مكي الجزيني (ق: 768هـ / 1384م) .

بالنسبة لمدفنه ، فما من نصٍّ مُباشرٍ عليه . ولكن آغا بُزُرك ينقلُ " **عن خطّ جدِّ صاحب المدارك عن خطّ الشهيد**" ، أن عبد الجبّار بن عبد الله الرازي ، الذي سنعرفه بوصفه أحد أبرز تلاميذ ابن البرّاج ، توفي في "طرابلس" بعد شيخه : " **ودُفن بحُجرة القاضي**" [2] . يعني الحُجرة التي دُفن فيها أستاذه . ممّا يُفهمُ منه أنه كان لابن البرّاج مقامٌ معروفٌ في المدينة ، دَرَسَ وضاع في كوارث الأيام الآتية .

---

(1) رياض العلماء : 3 / 142 .

(2) طبقات أعلام الشيعة (النابس) ، ط. قم ، مؤسّسة اسماعيليان ، لات/ 107 .

مع الشيخ الطوسـي

مع الشيخ الطوسي

—

(1)

قبل أنْ ندخلَ مسرحَ "طرابلس" من سيرةِ ابن البرّاج ، علينا أن نقِفَ وقفةً مُتأنّيةً عند نمطِ العلاقةِ التي جمعته بثاني أساتذته ، الشيخ الطوسي . وذلك تماهياً معه ، حيث سنراه بعد قليل لا يُضيّعُ فرصةً لذكرعلاقته بشيخه . كما أنّ الشيخَ نفسَه أشارإليه إشاراتٍ تنمُّ عن التقدير العالي . ثم لِما لهذا البحثِ من علاقةٍ وطيدةٍ بالمرحلة التالية والبالغة الأهمّيّة من سيرته . أعني مرحلةَ "طرابلس" .

والحقيقةُ التي يحسُنُ بنا أنْ نُنوّهَ بها ، أنّ الذي فتقَ البحثَ في هذا هو الشيخ جعفر السّبحاني ، في المُقدّمة الضّافية التي وضعها لكتاب ابن البرّاج (المُهذّب) [1] سنة 1406هـ/1985م . ثم تابعَ البحثَ نفسَه في الترجمة التي علّقها له في كتابه (تذكرة الأعيان) [2] سنة 1419 هـ/1998م . واستفادَ كثيراً من الأوّل من البحثيَن مُحقّقُ كتاب (شرح جُمَلِ العلمِ والعمل) كاظم مدير شانه جي في المُقدّمة التي وضعها لنشرته للكتاب سنة 1352هـ . ش/1994م [3] .

ينتهي الشيخُ السبحانيُّ من بحثه إلى أنّ ابن البرّاج كان يحضرُ درسَ الطوسي من موقعِ الزّمالة ، وليس من موقع التتلمُذ بالمعنى الكامل للكلمة . زمالةً بدأتْ بحضورهما معاً على أُستاذيهما السيّد المُرتضى . ثم تابعاها باشتراكهما في التصنيف والبحث ، حيث انتهيا في هذا إلى اتفاقٍ أو اختلاف . مُستنداً في كلِّ ذلك إلى الملاحظة والنصوص التالية :

---

(1) ابن البرّاج : المُهذّب ، ط . قم 1406 هـ / 38 . 41 .

(2) السبحاني : تذكرة الأعيان ، ط . قم 1419 هـ / 84 . 88 .

(3) شرح جُمل العلم والعمل / 6 . 8 .

. 1 : أنهما اقتسما شرحَ كتاب (جُمل العلم والعمل) لأستاذيهما . فتولّى الطوسيُّ شرْحَ القسم الكلاميّ منه ، وسمّاه (تمهيد الأصول) ، بينما شرحَ ابنُ البرّاج القسمَ الفقهي ، الذي حقّقهُ شانه جي .

. 2 : قولُ ابن البرّاج في شرحه نفسه ، عند البحث في جواز إخراج القيمة وليس العَين ممّا تجبُ فيه الزكاة ، ما نصُّه :

" [. . . . .] فأمّا قوله [أي السيّد المُرتضى] بجواز إخراج القيمة فهو عندنا جايز ، إلا أنّ الأفضل إخراجُها من الأجناس المُقدّم ذكرُها . وقد وافقنا في صحّةِ إخراجِ القيمةِ عنها الثّوريُ ، ورُوي ذلك عن عُمر بن عبد العزيز والحسن البصري . وحُكي ذلك عن أبي حنيفة . وخالفَ باقي الفقهاء في ذلك . ودليلُنا عليه الإجماعُ المُقدّم ذكره . ومَن أراد إخراجَ القيمة وقد ذكر في ذلك ما أشار إليه صاحبُ الكتاب رضي اللهُ عنه من الرّواية الواردة من الدرهم أو الثلثيَن . والأحوطُ إخراجُها بقيمةِ الوقت . وهو الذي استقرّ تحريرُنا له مع شيخنا أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي رحمه الله" [4].

. 3 : قوله في كتابه (المُهذّب) ، كتاب الكفّارات :

" وإذا حلفَ لا آكلُ هذه الحنطة ، أو من هذه الحنطة ، فأكلها على جهتها أو بعد أن طحنها وصارتْ دقيقاً حنث . لأن العينَ الذي تعلّقتْ اليمينُ بها واحدة "

---

(4) نفسه / 267 . 68 .

" وكان الشيخُ أبو جعفر الطوسي رحمه الله قد قال لي يوماً في الدّرس ، إن أكلَها على جهتها حنَث ، وإن أكلها دقيقاً أو سويقاً لم يحنُث . فقلتُ له ولِمَ ذلك ، وعينُ الدقيق هي عينُ الحنطة ، وإنما تغيّرتْ بالتقطيع الذي هو الطحْن ؟ فقال : قد تغيّرتْ عمّا كانت عليه ، وإن كانت العينُ واحدة . وهو حلفَ أن لا يأكلَ إلا ما هو مُسمّى حنطة ، لا ما يُسمّى دقيقاً ".

" فقلتُ له ، هذا لم يجُز في اليمين . فلو حلف لا أكلتُ هذه الحنطة ما دامت تُسمّى حنطة ، كان الأمرُ على ما ذكرت . فإنما حلفَ أن لا يأكلَ هذه الحنطة أو من هذه الحنطة " .

" فقال ، على كل حال قد حلفَ أن لا يأكلّها وهي على صفة . وقد تغيّرتْ تلك الصفة . فلم يحنث " .

" فقلتُ ، الجوابُ ها هنا مثل ما ذكرتُ أوّلاً . وذلك إن كنتَ تريد أنه حلف أن لا يأكلها وهي على صفةٍ ، أنه أراد تلك الصّفة ، فقد تقدّم ما فيه . فإن كنتَ لم تُرِد ذلك فلا حُجّةَ فيه . ثم يلزمُ على ما ذكرتَه أنه لو حلف أن لا يأكل هذا الخيار أو هذا التفاح ، ثم قشّره وقطّعه وأكله لم يحنث . ولا شُبهةَ في أنه حنث " .

" فقال ، مَن قال في الحنطة ما تقدّم ، يقولُ في الخيار والتفاح مثله " .

" فقلتُ له ، إذا قال في هذا مثلَ ما قاله في الحنطة عُلم فسادُ قوله بما ذكرتُ ، من أنّ العين واحدة . اللهم إلا إن شرطَ في يمينه أن لا يأكلَ هذا الخيار أو هذا التفاح وهو على ما هو عليه ، فإنّ الأمرَ يكونُ على ما ذكرتَ . وقد قلنا أنّ اليمين لم يتناول ذلك " .

" ثم قلتُ له ، على أنّ الاحتياط يتناولُ ما ذكرتَهُ . فأمسك " [5] .

. 4 : في الكتاب نفسه ، في كتاب الطهارة ، بحثُ ما إذا اختلط الماءُ المُضافُ بالماء المُطلَق على نحوٍ كانا مُتساويَن ، فهل يجوز استعماله في إزالة النجاسة ورفع الحَدَث ؟ فذهب الاستاذُ إلى الجواز ، وخالفه المؤلّف . وأثبتَ ما دار بينهما من كلامٍ على البحث ، قال :

" وقد كان الشيخُ أبو جعفر الطوسي رحمه الله قال لي يوماً في الدرس ، هذا الماءُ يجوزُ استعمالهُ في الطهارة وإزالة النجاسة . فقلتُ له ، ولمَ أجزتَ ذلك مع تساويهما ؟ فقال ، إنما أجزتُ ذلك لأنّ الأصلَ الإباحة " .

فقلتُ له ، الأصلُ وإن كان الإباحة ، فأنت تعلمُ أن المكلفَ مأخوذٌ بأن لا يرفع الحدثَ ولا يُزيلَ النجاسة عن بدنه أو ثوبه إلا بالماء المُطلق . فتقولُ أنت ، بأنّ هذا الماء مُطلق ؟ فقال ، أفتقولُ أنت بأنه

---

(5) المُهذّب : 2 / 419 . 20 .

غير مُطلق ؟

فقلتُ له ، أنت تعلم أنّ الواجبَ أن تُجيبني عمّا سألتك عنه . قبل أن تسألني . بلا أو نعم . ثم تسألني عمّا أردتَ . ثم أنني أقولُ بأنه غير مُطلق .

فقال ، ألستَ تقولُ فيهما إذا اختلطا ، وكان الأغلبُ والأكثرُ المُطلق . فهما مع التساوي كذلك " .

" فقلتُ له ، إنما أقولُ بأنه مُطلقٌ إذا كان المُطلقُ هو الأكثر والأغلب ، لأنّ ما ليس بمُطلق ما لم يؤثّر في إطلاق اسم الماء عليه . ومع التساوي قد أثّرَ في إطلاق هذا الاسم عليه ، فلا أقولُ بأنه مُطلق . ولهذا لم تقُلْ أنت بأنه مُطلق ، وقلتَ فيه بذلك إذا كان المُطلق هو الأكثرُ والأغلب . ثم أن دليلَ الاحتياط تناول ما ذكرتُه . فعاد إلى الدرس ، ولم يذكر في ذلك شيئاً " [6].

المُلاحظةُ الأُولى تدلُّ بما لا يقبلُ الرّيبَ على أنّ الشّارحيَن ، إذ اقتسما شرْحَ كتاب أُستاذيهما ، قد عملا من موقع الزّمالة . وهذا واضح .

لكنني أرى أنّ تلك النصوص الثلاثة النادرة غنيّةٌ جدّاً بالدّلالات والمغازي . وتحليلُها على يدِ عارفٍ بتطوّرِ البحثِ الفقهيّ حتى عصرهما ، يقفُ بنا عند مُفتَرَقٍ أساسي . خصوصاً وأنّنا نعرفُ أنّ الشيخَ الطوسيَّ هو الذي ثبّتَ النَهجَ الفقهي الاجتهاديّ العقلي ، المَبنيّ على استنباطِ نصٍ فقاهتيّ . في مقابل النهج النقلي . بعد أن اجتازَ طريقه الطويل منذ الحسن بن أبي عقيل العمّاني (ت:329 /

---

(6) نفسه : 1 / 24 . 25 .

940م) . "**أوّلُ مَن هذّبَ الفقه ، واستعمل النّظرَ ، وفتقَ البحثَ عن الأُصول والفروع**" [7].
ومُعاصره علي بن بابويه القُمّي ، المعروف بالصّدوق الأوّل ، الذي توفي في العام نفسه ، مُصنّف كتاب (الشّرائع) . ثم محمد بن أحمد بن الجُنيد الإسكافي (ت:381هـ / 991م) ، صاحبُ أوّل موسوعةٍ فقهيّةٍ كُبرى ، هي (تهذيبُ الشيعة لأحكام الشريعة) ، في نحو عشرين مجلداً ، تشتملُ على عددٍ من كُتب الفقه [8] وكتاب (المُختصَرُ الأحمدي في الفقه المُحمّدي) في الفقه مُجرّداً [9] . إلى أنْ جاء الشيخ الطوسي ، فوضع عدداً من الكُتب الفقهية : (المبسوط) ، (الخلاف) ، (الجُمل والعقود) ، (الاقتصاد) ، فضلاً عن (العُدّة) في أصول الفقه ، و (رسالة في العمل بخبر الواحد وبيان حُجّيّته) ، إلى جُملةٍ من الرسائل الفقهيّة الصغيرة . وبذلك ، كما قُلنا ، ثبّتَ النهج الفقهي .

ومع ذلك ، وأيضاً مع أنّ لغةَ الحوار في النصوص الثلاثة يغلِبُ عليها طابع التفكير والتحليل ، أي أنها تجنحُ جُنوحاً ما إلى النهج العقلي . الاجتهادي ، فإننا نُلاحظُ شيئاً من القلقِ المفهومي في اللغة الفنّيّة الدّائرة بين المُتحاورِيَن . وذلك أمرٌ طبيعيٌّ جدّاً ، نظراً للمرحلة الانتقاليّة التي كان النهجُ يجتازُها في ذلك الأوان . أي قبل أن يستقرّ المُصطلَح على ما استقرّ عليه فيما بعدُ والآن .

من ذلك استدلالُ الطوسي بأصل الإباحة على "**جواز**" استعمال الماء المُختلِط في الطهارةِ من الحدّثِ ورفْعِ النجاسة . مع أنّ الكلامَ في هذا لم يكُن يدورُ على أمرٍ تكليفيّ فيه تحريمٌ وتحليل ، بل على أمرٍ موضوعي فيه صحّةٌ وفساد . والظاهر أنّ المفهوم كان أوضح في ذهن ابن البرّاج ، بشهادة أنه ، وإنْ وافقَ على

---

(7) رياض العلماء : 1 / 203 .

(8) النجاشي : الرجال ، ط . بيروت 1408هـ / 1988م ، باعتناء محمد جواد النائيني ، برقم / 1048 .

(9) الطوسي : الفهرست ، ط . بيروت 1403 هـ / 1983م ، برقم / 602 .

مُقتضى أصل الإباحة في المقام ، فإنه نقضَ حُجّة الشيخ بقاعدةِ الاشتغال . وهي تنطبقُ تماماً على موضوعِ النزاع .

مهما يكُن ، فإنّ بُغيتنا من إيراد تلك النصوص هي في الأساس ما فيها من دلالةٍ على نمط العلاقة التي نمَتْ بين علَمين . أحدهما قادمٌ من "طوس" ، شمال "إيران" ، والثاني من "طرابلس" غرب "الشام" . جمعتهما ، على بُعْدِ الشُّقّة ، "بغدادُ" الشيخِ المُفيد . فصنعتْ منهما رجُلَي عصرهما . وتركا حيثما حلاّ أثراً مُتفاوتاً . لكنه ، بصرف النظر عن حجمه ، من الباقيات الصالحات . وها نحنُ الآن ، إذ نُنعِمُ النظرَ في تلك النصوص النّادرة ، كأننا نسمعهما وهما يتبادلان الفِكرةَ والحُجّةَ ، بعد زُهاء الألف عام على وفاتهما .

السؤالُ الأساسُ الذي يطرحُ نفسَه اليومَ على المُتأمّل هو : لماذا استطردَ مُصنّفُ الكتابيَن ، فأشار أوأوردَ مُطارحاتِه مع شيخه ، مع أن ذلك يبدو لنا خارجَ غرضه من تصنيفهما ، لأنّ الكتابيَن كليهما ليسا من الفقه الاستدلالي ؟ يُعزِّزُ التساؤل عندنا أننا لم نقع إطلاقاً فيما وصلنا من كُتُبه على مثل ذلك مع أُستاذه الأوّل السيّد المُرتضى .

من الواضح أن هذا التساؤلَ يدورُ على النّوايا وما تكنُّهُ السّرائر . وذلك أمرٌ يتجنّبُ المؤرّخُ الحصيفُ الخوضَ فيه . لأنه أشبهُ بمحاولةِ إصابةِ هدفٍ في الظلام . ما يُجرّؤنا على الخوْضِ في الجواب ، أننا نملُكُ شبهَ دليل على أنه أراد بذلك أن يوحي للقارئ أنه ، وإن جلس مجلسَ التلميذ في حلقة الشيخ ، فإنه لم يكُن يرى نفسه أقلّ تمكُّناً منه . ذلك أن جميع المُطارحات التي أشار إليها أو نصّ عليها كانت الكلمةُ الأخيرةُ فيها لابن البرّاج . لأنها تنتهي دائماً إمّا بالتوافق ، مرّةً واحدةً ، وإمّا بإمساك الشيخ عن الكلام وكأنه انقطع .

هكذا يبدو لنا بكامل الوضوح ، أنّ ما سبقَ الشيخُ السبحانيُّ إلى استفادته من مُختلف النصوص ، لم يكُنْ استنتاجاً بتوسّطِ لا بُدّيّة عقليّة ، بل كان تماهياً مع

لُغة ابن البرّاج نفسه وإيحاءاتِها غير الخفيّة . ومن ذلك أنه إذ يذكر السيّدَ المُرتضى في كتابه (المُهذّب) يقولُ دائماً : "**شيخنا**" ، بينما يذكر الشيخَ الطوسي غالباً بقوله : "**الشيخ أبو جعفر الطوسي**" .

(2)

ومع ذلك فإن علاقةً حميمةً ومديدةً قامت بين الاثنيَن ، حتى بعدَ أنْ تفرّقتْ بهما السُّبُلُ . فآبَ ابنُ البرّاج سنة 438هـ / 1046م إلى وطنه بعد أن اكتفى من طُعمته في مَهجَره . ثم خرج الشيخُ الطوسيُّ من "بغداد" بعد عشر سنوات ، سنة 448هـ / 1056م ، بعد أن تغيّرتْ عليه . والتجأ إلى حَرَم الإمام علي (عليه السلام) في "النجف". علاقةً طالتْ مُدّة اثنتين وعشرين سنة أو تزيدُ قليلاً ، أي حتى وفاة الشيخ الطوسي سنة 460هـ / 1067م في "النجف" .

هذه العلاقة نجِدُ آثارَها اليومَ في عددٍ من أعمال الشيخ الطوسي الباقية . حيث يبدوابنُ البرّاج وكأنّه مصدرُ وحيٍ ومنبعُ أفكارٍ ومشروعاتٍ علميّة عديدة ، يقترحها على الشيخ ، فلا يتوانى هذا عن تنفيذها . وبعضُها ما هو من أجلّ وأبقى مُصنّفاته . ممّا يدلّ على جَوْدة تفكير ابن البرّاج ، والمكانة العالية والثقة التامّة التي أولاها كلٌّ منهما للآخَر . ثم أن الشيخَ يذكره بتلك الصفة في مقدّمة غير كتابٍ من كُتُبه ، مُكَنّياً عنه بـ "الشيخ الفاضل" أو "الشيخ الجليل" . والمصادرُ تذكرُ أنّ فيما سُطِرَ على حواشي نُسَخ بعض كُتُب الشيخ الخطّيّة ، أنّ المقصودَ بذينك الوصفين إنما هو ابنُ البرّاج . ممّا يدلُّ على ارتكازٍ قائمٍ ، مُستندٍ إلى مرويّاتٍ شفويّةٍ مُتناقلَة ، ممّا نجِده ومثلَه في أيّ وسَطٍ ثقافي حيويّ .

من تلك الآثار : (نقول : "من" ، بما تعنيه من تبعيض ، لأننا استفدنا الإشارات إلى علاقة ابن البرّاج بمبادرة الشيخ إلى تصنيف هذا الكتاب أو ذاك من مُقدّماتها . وبما أنّ عدداً غير قليل من مُصنّفاته مفقود ، فمن المُحتمَل أن هناك مُصنّفات أُخرى ممّا كان هو الباعث إلى تصنيفه مفقود) .

. 1 : (مسائلُ ابن البرّاج) للشيخ . نُقدّم ذكرها على غيرها ، ممّا هو أكثر أهمّيّةً ، لأنها الوحيدة ممّا وصلنا ذكره من مُصنّفاته التي ينُصّ في اسمها على أن تصنيفها بمُبادرةٍ من ابن البرّاج [10].

. 2 : (المُفصِحُ في إمامة أمير المؤمنين) يقولُ في مقدّمته :

" سألتَ أيّها الشيخُ الفاضل ، أطال الله بقاك وأدامَ تأييدك ، إملاءَ كلامٍ في صحّةِ إمامةِ أمير المؤمنين علي بن ابي طالب صلوات الله عليه من جهة النصوص المَرويّة [. . . .] . وأنا مُجيبكَ إلى ما سألتَ ، مُستمدّاً من الله تعالى المعونة" [11].

. 3 : (الجُمَلُ والعُقود) :

" أمّا بعد . فإنّي مُجيبٌ إلى ما سأله الشيخُ الفاضل ، أطال الله بقاه ، من إملاءِ مُختصرٍ مُشتملٍ على ذكرِ كُتُب العبادات ، وذكرِ عقود أبوابها ، وحصْرِ جُمَلها " [12] .

. 4 : (الرجال) :

" أمّا بعد . فإنّي قد أجبتُ إلى ما تكرّر سؤالُ الشيخ الفاضل فيه . من جَمْعِ كتابٍ يشتملُ على

---

(10) معالمُ العلماء / 115 . وقد سها شيخنا الطهراني في (الذريعة : 20 / 331) حيث قال : " ذُكر في الفهرست " يعني كتاب الشيخ الطوسي هذا فيما يبدو . والحقيقة أن لا ذكر لها فيه . ممّا يُفهمُ منه أن تصنيفها مُتأخّرٌ عن (الفهرست) .

(11) الطوسي : الرسائل العشر ، ط . قم 1399 هـ / 1978م / 117 .

(12) الرسائل العشر / 155 . ويقولُ مُحقّق (الرسائل العشر) فيما قدّم به للكتاب ، أنه رأى في هامش النسخة الخطّيّة للرسالة أن الشيخَ هو ابنُ البرّاج .

أسماء الرجال الذين رووا عن النبي (ص) وعن الأئمة (ع) من بعده إلى زمن القائم (ع) . ثم أذكرُ بعد ذلك مَن تأخّر زمانُهُ عن الأئمة " [13]

. 5 : (الفهرست) :

" **ولمّا تكرّر من الشيخ الفاضل ، أدام الله تأييده ، الرّغبةُ فيما يجري هذا المجرى ، وتوالى منه الحثُّ على ذلك ، ورأيته حريصاً عليه ، عمدتُ إلى كتابٍ يشتملُ على ذكرِ المُصنّفاتِ والأصولِ [. . . . . الخ]** " [14] .

. 6 : (كتابُ الغَيْبَة) :

" **أمّا بعد . فإنّي مُجيبٌ إلى مارسمه الشيخُ الجليلُ ، أطال الله بقاه ، من إملاءِ كلامٍ في غيبةِ صاحبِ الزمان ، وسببِ غيبته ، والعلّةِ التي لأجلها طالتْ غيبتُه وامتداد استتاره [. . . . . الخ]** " [15] .

فأنت ترى من كلّ ذلك ، أنّ الشيخَ الطوسي استجابَ أربعَ مرّاتٍ لـ "الشيخ الفاضل" ، ومرّةً لـ "الشيخ الجليل" ، لاقتراحِ موضوعاتٍ للتصنيف ، الغالبُ عليها الصفةُ البحثيّةُ ، أي ممّا يدخلُ في اهتمام الباحث . ممّا يدلّ ، أوّلاً ، على أنّ المُقترِحَ يُعاني الحاجةَ إليها ، وثانياً ، أنه مقبولُ القولِ عنده . وهذا كلّه يُشيرُ إلى

---

(13) الطوسي : الرجال ، ط . النجف 1381 هـ / 1961 م / 2 .

(14) الطوسي : الفهرست ، ط . بيروت 1403 هـ / 1983 م / 28 .

(15) الطوسي : كتابُ الغيبة ، ط . قم 1411هـ ، باعتناء الشيخَين الطهراني وناصح / 29 .

ابن البرّاج كما تدلُّ عليه الدّلائلُ . كما أنها ، بكثرتها وتنوّعها واستمرارها ، حالةٌ فريدةٌ لا ثانيَ لها في كلِّ ما نعرفه من أنماطِ العلاقةِ بين كبارِ فقهائنا . أمّا أنموذجُ (كتاب الغيبة) ، الذي كان الشيخ الطوسيُّ مشغولاً بتصنيفه سنة 447هـ /1055م [16]، أي يومَ كان ابنُ البرّاج في "طرابلس" . ، فهو يدلُّ على أنّ صاحبَ اقتراحِه يُعاني همّاً مُقلقاً حولَ انتشارِ ثقافةِ موضوعِه . ونحن نعرفُ أنّ المنطقةَ الشّاميّةَ لم تبدأ الالتحاق بما جدّ في "العراق" ، من إيصالِ التشيّعِ إلى مُستقرّه الفكريّ كلاميّاً وفقهيّاً ، ومنه مُعضلةُ الغيبةِ الطويلةِ ، إلا على يد سلفِ ابنِ البرّاج أبي الفتح الكراجكي ، ثم تابعَ ابنُ البرّاج العمل عليه . من هنا فإننا نرى في اقتراح هذا الكتاب بصماتِ ابن البرّاج وهو يُتابعُ نهجَ سلفه الكبير .

فمن ذلك كلّه نرى أنّ علاقةً متينةً ومديدةً ، والآن بوسعنا أن نقولَ ، ومُثمرةً أيضاً ، قد وشجَتْ ما بين الشيخين ، الطوسي وابن البرّاج ، من ثمراتها الباقية ما يزال فائدةً وبركةً حتى يوم الناس هذا .

---

(16) ذكر ذلك في (كتاب الغيبة) / 112 .

ابن البرّاج في "طرابلس"

(تمهيد)

1 ــ مُدرّســـاً
2 ــ قا ضيــاً
3 ــ مُصنّفـــــاً

ابن البرّاج في "طرابلس

ـــ

تمهيـد

عرفنا ممّا فاتَ أنّ ابنَ البرّاج قفلَ عائداً إلى مسقط رأسه "طرابلس" سنة 438هـ / 1046م ، واتخذها مُستَقَرّاً له حتى وفاته . وكانت المدينةُ آنذاك تحت حُكم الفاطميين . وهم الذين أسّسوا لتقليدِ تنصيبِ قاضٍ عليها ، يتمتّعُ بصلاحيّاتٍ واسعةٍ ، بحيثُ يقودُ الجُندَ وأسطولَ المدينة العسكريّ ، ويُبرمُ الاتفاقاتِ مع حُكّامِ المُدُنِ والحصون المُجاورة ، ويبسطُ نُفوذاً تامّاً على مُدّنِ الساحلِ . وذلك بشخصِ القاضي علي بن عبد الواحد بن حيدرة (قتله الحاكم الفاطمي سنة : 402 هـ / 1011م) (1) . ذلك التقليد الذي سلكَ سبيلَه بنو عمّار فيما بعد ، ليصِلوا عبْرَهُ إلى الإمارة . ثم خلفَ ابنَ حيدرةَ في منصب القضاء على التوالي ابناه القاضي الحسين بن علي، فالقاضي هبةُ الله بن علي (2) .

وجديرٌ بنا أن نذكرَ في سياق حركة هذا التأريخ للمدينة ، في الطريق إلى استقلالها على يدِ بني عمّار ، ولايةَ ناصر الدولة حسين بن حسن بن حمدان عليها بعدهما (3) ، وهو من سُلالة الحمدانيين أُمراءِ "حلب" . وذلك بوصفه أوّلَ والٍ

ـــ

(1) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ط . بيروت 1908م / 51 ويحيى بن سعيد الإنطاكي : صلة تاريخ أوتيخا ، ط . بيروت 1909 : 1 / 210 . وانظر من مدائح الشعراء في هذا القاضي ، نظراً لأعماله العسكريّة والسياسيّة ، في ديوان عبد المحسن الصّوري ، ط . بغداد 1980 م : 1 / 259 ، وديوان أبي الحسن التُّهامي ، نشرة المركز الإسلامي في بيروت ، الطبعة الثانية ، لات / 12 .

(2) انظر على التوالي ديوان التهامي / 112 وديوان الصّوري : 1 / 380 حيث أوردا مدائحَ في هذين القاضييَن .

(3) لا ذكرَ لتاريخ ولايته عليها . لأنه إنما ذُكر بوصفه والياً صُرف عنها سنة 415 هـ / 1024م . اتعاظ الحُنفا : 2 / 144 ومحمد بن عبد الله المُسبّحي : أخبار مصر ، ط . مصر بتحقيق وليم ج . ميلود 1980 م / 58 .

شيعيٍّ إماميٍّ عليها . ممّا يُشير إلى بدايةِ اعتراف الفاطميين عمليّاً بهُويّةِ المدينة ، وضرورةِ التماهي السياسي مع هذه الهُويّة ، عن طريق تعيين والٍ عليها من المذهب الغالب على أهلها . وفقاً لمُقتضيات الدهاء السياسيّ وفنِّ الحُكم .

وممّا لا يخلو من كبير مغزى ، أنّ الخليفة الفاطميّ الظاهر استقدمَ ابنَ حمدان إلى "القاهرة" بعد أن عزلَه عن ولاية "طرابلس" ، حيث " **لُقي بالبنود والطبول . وكان عدّة البنود أربعين بنداً مُلوّنةً ، وخمسة بنودٍ مُذهّبةً** " [4] . وكأنه أراد بهذا التكريم غير العادي لوالٍ معزول ، أن لايُساءَ فهمُ عزله من قِبَل الشيعة في المدينة ، فيبدو وكأنهم هم المقصودون بذلك العمل . ممّا يدلُّ دلالةً لا ريب فيها على أنهم غدوا قوةً سياسيّةً يُخشى خطرُها وينبغي مُراعاةُ مواقفها .

عندما دخلَ ابنُ البرّاجِ "طرابلس" كانت المدينةُ منذ عدّةِ عُقودٍ من السنين تحتُ سلطانٍ فعليٍّ ما لبني عمّار. وإنْ لم يكُنْ ذلك تحت عنوان الإمارة المُستقلّة ، كما سيحصلُ بعد عدّةِ عُقودٍ أُخرى . وهذا من خفايا تاريخ المدينة الذي لا يذكره المؤرّخون قدماء ومُحدَثون . وهم الذين يُجمعون على أنّ عهدَ بني عمّار لم يبدأ إلا بعد مُنتصف القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد . عرفنا ذلك من خبرٍ يرويه ابن حجر العسقلاني ، نقلاً عن ابن ابن طيّ الحلبي ، في كتابه المفقود (رجال/تاريخ الشيعة /الإماميّة) ، يقول أنّ الحسين بن أحمد بن القطّان البغدادي (ح:420هـ /1029م) ، تلميذُ الشيخ المفيد والسيّد المرتضى ، قدِمَ "حلب" سنة 390هـ/999م ، فجلس في جامعها يُقرئ الناس . ثم توجّهَ إلى "طرابلس"، فأقام عند "**<u>رئيسها</u> الشيخ أبي طالب بن عمّاروأقرأ أولاده**" [5] . وما من شكٍ في أنّ (أبا طالب) هذا هو غيرُ أبي طالب عبد الله بن محمد بن عمّار، أوّلُ مَنْ حَمَلَ

---

(4) أخبار مصر / نفسه .

(5) لسان الميزان ، ط . حيدر آباد 1330هـ : 2 / 267 . وانظر الترجمة له في كتابنا (أعلام الشيعة) .

لقبَ الإمارة من بيته . لأنّ هذا توفي سنة 464هـ / 1071م . ومن المُستبعَد جدّاً أن يكون له أولاد في سنّ الدّراسة قبل أربعة وسبعين سنة تقريباً من وفاته . ليس هذا فقط ، بل إنّ الدكتور عمر تدمري يقول :" **ووصلنا قطعة نقود ضُربتْ بطرابلس تحمل على أحد وجهيها عبارة الإمام محمد بن عمّار**" [6] ولا نعرفُ مَن اسمه (محمد) من البيت إلا ابن عمّار جدُّ الأسرة ، وهو والد عبد الله وأخيه أحمد . وعلى كلّ حال ، فإنّ الأمرَ طريفٌ ومُعقّدٌ ، وهو بحاجةٍ إلى مزيد بحثٍ وتدقيق . ما يهمّنا منه الآن إجمالاً ، أنه في الوقت الذي دخل فيه ابنُ البرّاج "طرابلس" كان بنو عمّار من الأسُرات البارزة جدّاً في المدينة ، على الأقلّ . وهناك أدلّةٌ إضافيّةٌ على ذلك . ولكنّ في هذا الذي سُقناه منها كفايةٌ على المقصود .

مهما يكُن ، فإننا نعرفُ أنه في ذلك التاريخ ، أي السنة 438هـ/1046م ، كان الشيخُ الكراجكي قد استقرّ به المقامُ في "طرابلس" قبل سنتيَن أو تزيدُ قليلاً . ففي السنة 436هـ/ 1044م لقي فيها شيخَه أبا الحسن علي بن الحسن بن منده وسمع منه [7] . واستناداً إلى ما نعرفه من سيرة الرجليَن ، أعني الكراجكي وابن البرّاج ، فإننا نُرجّحُ بقوّةٍ أنهما تعايشا فيها طيلةَ ما بقي من عُمر الكراجكي ، أي حتى السنة 449 هـ/1057م . طبعاً ، باستثناء الأوقات التي نعلمُ أنّ الكراجكيَّ كان يقضيها في التجوال في مُدُن السّاحل ، وخصوصاً في "صيدا" و "صور" ، وصولاً إلى "طبريّة" ، وربما إلى "حلب" ، كما كان دأبه دائماً [8] .

ومع ذلك فإننا لا نجد فيما وصلنا من أعمالهما ما يدلُّ على أنه قامتْ بينهما علاقةٌ من النمط الذي ينشأُ بين عالميَن مُتعاصريَن مُتساكنيَن . وربما كان السببُ

---

(6) تدمري : تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور ، ط . بيروت 1404هـ/1984م / 318 .

(7) الكراجكي : التفضيل / 15 .

(8) انظر القسم الرابع من الفصل الثالث من كتابنا (الكراجكي ، عصره ، سيرته ، عالمه الفكري وأعماله ، مصنفاته) .

في ذلك يعودُ إلى نمطِ الحياةِ غير المُستقرّةِ التي اختارها الكراجكيُّ لنفسه . التي يبدوأنه لم يخرج عليها تماماً ، حتى بعد أن علا سنُّه واتخذ من "طرابلس" مُستقرّاً له . ذلك أن لدينا الكثيرمن الأدلّة على أنه ، حتى في هذه الفترة التي تمتازُ باستقرارٍ نسبيّ بالقياس إلى ما سبقها ، ظلّ فارسَ الثغور الذي لايتوانى عن خفارتها وتحصينها مُتنقّلاً بين حواضرها حيث يدعوه العمل .

على كلّ حال ، فالظاهرُ أنّ ابنَ البرّاج انصرف ، ما بين رجوعه إلى "طرابلس" سنة 438هـ / 1046م وحتى وفاته سنة 481هـ / 1088م ، أي زهاء ثلاثٍ وأربعين سنةٍ عَدّاً . ، إلى التدريس والتصنيف والقضاء في الأساس . وعلينا الآن أن نولي كلاًّ من هذه على التوالي العنايةَ التي يستحقُّها .

—

1 . ابن البرّاج مُدرّساً .

—

(1)

من الثابت أنّ الشيخ أبي الفتح محمد بن علي الكراجكيَّ الطرابلسي (ت: 449 هـ / 1057 م) هو الذي افتتحَ حركةَ التدريس وإعدادَ الفقهاء في وطنه . وأنها من قبله لم تكُن في هذا الباب شيئاً مذكورا . إذنْ ، فهو رائدُ هذه الحركة دون مُنازِع ، ليس في "طرابلس" وحدها ، بل في كلّ غرب "الشام" . وقد أحصينا أسماءَ مَن وقفنا عليهم من تلاميذه ، الذين توافدوا للدراسة عليه من مُختلف الأقطار، في كتابنا(الكراجكي عصره سيرته عالمه الفكري وأعماله) [1] ، فليرجعْ إليه مَن أحبَّ . وهم ستة فقهاء . على أنه من المُمكن ، بل من شبه المؤكّد ، أنّ يكونَ هناك كثيرين غيرهم ، ممّن ضاع ذكرهم في كوارث الأيام الآتية .

لكنّ أعمالَ الكراجكي في هذا النطاق لم تؤتِ أُكُلَها ، وتغدوظاهرةً بارزةً ذات أثرٍ ملموس ، إلا بفضل وعلى يدِ خَلَفِه ابن البرّاج . أي بعد وفاة الكراجكيّ المؤسّس بعقودٍ قليلةٍ من السنين . وذلك أمرٌ مُتوقّعٌ وطبيعيٌّ جدّاً . هكذا شأنُ الرّيادة دائماً . إنها تؤسّسُ لحوافز ومسلكيّاتٍ جديدة ، وتوظّفها في الاتجاه الذي تعملُ عليه ، ولكنها لا ترى نتائجها . وهكذا شأنُ الروّاد . إنهم يزرعون لغيرهم ، ولكنهم لا يتمتّعون في هذه الحياة الدُنيا بثمار ما زرعوه . يُعبّدون الطريقَ لمَنْ يأتي بعدهم من جُموع السالكين الذين ستزدحم بهم الطريق . أمّا آثارهم هُم فإنها تضيعُ في مُزدحَمِ الأقدام ، فلا تراها من بعدهم إلا عينُ الباحثِ الخبير. الذي عليه أن يُنقّبَ في زوايا الأخبار ونصوص الإجازات وأسناد الأحاديث . ساعياً إلى إعادة تركيب صورةٍ مزّقتها تصاريفُ الزمان كلَّ مُمزّق .

———

(1) انظر القسم الرابع من الفصل الثالث من الكتاب .

في أيّام ابنِ البرّاج ، وبفضل مساعيه ، وطبعاً وأوّلاً بفضل مُبادرات الكراجكي الرّياديّة أيضاً من قبله ، غدتْ المدينةُ حاضرةً علميّةً مُزدهرةً ، تعجُّ بالقادمين إليها من مُختلف الأنحاء للدراسة عليه .

من المعلوم أنه في النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد بلغتْ "طرابلس" ذروةَ حضورها الثقافي الذي دخلتْ به التاريخ من أوسع الأبواب . أي أنه حينما كان العالَمُ الإسلامي ينحدرُ بسرعةٍ وثباتٍ عن قمّته الفكريّة التي تربّع عليها زمناً ، بعد أن تراختْ الاندفاعةَ الأُولى التي أطلقتها البعثةُ النبويّة ، واستهلكتْ الثقافةُ الرّسميّةُ نفسَها ، وفقدتْ أصالتها ، كانت "طرابلس" تسلكُ طريقاً مُعاكساً باتجاه نهضتها السّاطعة والقصيرة العمر. وذلك أمر له مغزاه التاريخيُّ الكبيرطبعاً . ممّا يجبُ أن نقِفَ عليه بمقدار ما يقتضيه البحث .

ممّا لاشكّ فيه أنّ "طرابلس" مَدينةٌ بنهضتها التنمويّة والفكريّة إلى عدّة عوامل ، التقتْ وتآزرتْ بحيثُ أنتجتْ حالةً نهضويّة مُتكاملة العناصر مادّيّةً ومعنويّةً . يُمكن تلخيصُها فيما يلي :

. العاملُ الأوّل : حالةُ الرّفاه التي تمتّعتْ بها . وهي ترجعُ بدورها إلى مينائها النشيط ، الذي كان من أهمّ الموانئ التجاريّة في سواحل "الشام" ، بل ربما أهمُّها على الإطلاق . عن طريقه تتمُّ عمليّات نقل مُنتجاتِ المنطقة ، واستقبالُ السُّفُن التجاريّة القادمة من مُختلفِ الأنحاءِ الدّانية والقاصية . ثم إلى إنتاجها الزراعي المُصنّع ، وخصوصاً الورقُ الممتازُ والسُّكّر. وقد أحسنَ ناصر خسرو وصفَ ذلك كلّه في النصِّ الذي اقتبسناه عن رحلته قبل قليل .

. العاملُ الثاني : السياسةُ الحكيمةُ البعيدةُ النّظرالتي عمل بها أُمراؤها المُستنيرون بنو عمّار، الذين رعَوا ونمّوا إمكاناتها التّنمويّة فأحسنوا الرّعاية . كما رعَوا العلمَ والأدبَ وأهلَهما خير رعاية . فغدتْ المدينةُ في أيامهم مقصدَ العلماء والأدباء . تعجُّ بالمكتبات الخاصّة والعامّة ، وفي رأسها "دار العلم" ، التي تُطنبُ

المصادرُ حديثها وقديمها في وصف حجمها الهائل ، بحيث قيل أن قاعاتها المُتعدّدة ضمّتْ ثلاثة ملايين كتاب في مُختلف العلوم والفنون [2] . وهو رقمٌ مَهولٌ يصعُبُ الأخذُ به ، ولكنه يدلُّ إجمالاً على عظمتها وتفرّدها . هذا إلى جانب أنها ضمّتْ مدرسةً كبرى اسمها "دار الحكمة" . فضلاً عن عددٍ جمٍّ من دُور العلم والمكتبات الخاصّة في المدينة ، التي احتوتْ خزائنُها من الكُتُب الموقوفة "**ما لايُحَدُّ عدده ولا يُحصى**" [3]. والظاهرأنّ بني عمّار بدأوا العملَ على إنشاء وتجهيز الدّاريَن قبل أن يستقلّوا بالحكم . ذلك أنه ليس من المعقول أن ينجحوا في تحقيق إنجازٍ بذلك الحجم في العقود القليلة التي حكموا فيها مدينتهم على نحو الاستقلال . فضلاً عمّا يقوله ابنُ العديم الحلبي ، أنّ جلال المُلك ، ثاني أُمراء بني عمّار وأطولُهم حُكماً ، جدّدَ "دار العلم" هذه سنة 472 هـ / 1082م [4] ، ممّا يُفهم منه أنه بذلك التاريخ كانت قد مضتْ على تأسيسها مدّةٌ غير قصيرة ، بحيث احتاجتْ إلى تجديد .

(2)

السؤال الآن : ماذا كان موقعُ ابن البرّاج من هذه الحالة الفكريّة العالقة ؟ وبالتحديد : ماذا كان موقعه في المؤسّستيَن الرّسميّتيَن الكبيرتيَن "دار العلم" و "دارالحكمة " على الأقلّ ؟

---

(2) محمد كُرد علي : خطط الشام ، ط . دمشق 1929م : 6 / 197 و جرجي زيدان : تاريخ التمدّن الإسلامي ، ط . القاهرة 1958 م : 3 / 234 وأحمد شلبي : دراساتٌ في الحضارة الإسلاميّة ، ط . القاهرة 1971م : 1 / 51 .

(3) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ط . بيروت ، دار صادر ، لات : 10 / 476 . ونصٌ مُشابهٌ لدى ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ط . بيروت 1908م / 163 .

(4) ابن العديم الحلبي : الإنصاف والتحرّي في دفعِ الظلمِ والتجرّي عن أبي العلاء المعرّي ، مخطوطٌ بدار الكُتُب المصريّة ، الخزا نة التيموريّة ، برقم / 1085 تاريخ / 50 .

ونقولُ في الجواب :

ما من نصٍّ مباشرٍ يقولُ صراحةً ما يصلحُ جواباً على السؤال . ولكننا نعرفُ أنّ ابنَ البرّاج كان لمُدّةٍ تزيدُ على ثلاثة عقود (481.449هـ / 1046 .1088م) ، أي مابين تاريخ وفاة الكراجكي وتاريخ وفاته هو ، الفقيهَ والمُدرّسَ والمُصنّفَ الأبرزَ في "طرابلس" ولمُدّةٍ قاضيها . هذا فضلاً عن أنه أثناء تلك المُدّة قامت علاقةٌ متينةٌ جدّاً بينه وبين رجالاتِ أُسرةٍ بني عمّار ، بوصفهما قُضاة المدينة ، ثم بوصفهم حُكّامها . ومن ذلك أنه خدمهم بكتابيَن على الأقلّ من أعرف كُتُبه ، هما (المُهذّب) [5] و (جواهر الفقه) [6] . ثم أنهم ما أن استقرّ استقلالُهم بحُكم المدينة حتى جعلوه قاضياً عليها ، كما سنعرفُ بعد قليل . وهو المنصب الذي كان يشغله أميرُ المدينة الجديد أبو طالب عبدُ الله بن عمّار، ومن قبله القاضي علي بن عبد الواحد بن حيدرة (ق:402هـ/1011م)، الذي عرفنا ممّا فات أنه كان يبسطُ نفوذاً واسعاً على كلّ مُدُن الساحل . الأمرُ الذي يدعو إلى الاعتقاد إجمالاً أنّ منصبَ القضاء فيها كان منصباً مُختلفاً عمّا هو معمولٌ به في بقيّة الأقطار.

امرؤٌ كهذا في حضوره العلمي والرّسمي لا يمكن أن يكونَ مَقصيّاً عن أهمّ مؤسّستيَن علميّتيَن في المدينة التي هو قاضيها وأبرز عُلمائها .

---

(5) يقول في مقدمة كتابه هذا :" أمّا بعد فلو ساعدتني الأقدار ، وأطاعني الإمكانُ والاختيار ، لكنتُ مُستسعدّاً بالزيارة والإيلام والقبول والالهام بالحضرة القضويّة النقيّة الخالصيّة . أدام اللهُ أيامها ما دام الجديدان . وصرف عنها صرْفَ الحدثان . إذ كانت عضداً للمؤمنين ، وركناً من أركان الدين . ومقرّاً للرياسة والعدل ، ومحلاً للنفاسة والفضل. ولمّا كنتُ غير قادرٍ على ما قدّمته ، ولا مُتمكّنٍ ممّا ذكرته [. . . . الخ.] (المُهذّب ط . قم 1406 هـ : 1 / 17 . 18) .

(6) ويقول في مقدمته :" أمّا بعد فإنه لمّا كانت أيادي حضرة القُضاة الأغريّة [كذا] الجلاليّة الفخريّة ، ثبّتَ اللهُ وطأها ومجدها وأدام قُدرتها وسعدَها ، 'لينا مُمتدّةَ الأظلال مُسبَلَةَ الأذيال [. . . . الخ.] (جواهر الفقه ، ط . قم 1411هـ / 3) .

والنصّان يطرحان أسئلةً جمّةً ، لذلك فإننا سنعودُ إليهما فيما يأتي إن شاء الله .

مهما يكُنْ ، فإننا يُمكنُ أن نقسمَ فترةَ "طرابلس" من سيرة ابن البرّاج إلى قسميَن . في الفترة الأُولى كان أبرزَ علمائها ومُدرّسيها ، كما قُلنا آنفاً ، مُتّخذاً من "دار الحكمة" فيما نُرجّحُ محلاًّ للقاءِ تلاميذه وتدريسهم . وفي الفترة الثانية كان ، بالإضافة إلى ذلك ، قاضيَ المدينة . وسيكون علينا ، فيما بقي من هذا الفصل ، أن نقولَ ما عندنا على كلٍّ من الفترتيَن . ولكنني قبل ذلك أودُّ أن أتحقّقَ من أمرٍ أراه خطيراً جدّاً ، وإن تكُنْ بعضُ المصادر تتناقله وكأنه أمرٌ عاديّ ، ليس فيه كبيرَ أمرٍ. أعني بذلك ما تقوله بصيغةٍ أو غيرها ، أنه كان "**خليفة**" الشيخ الطوسي في "الشام" أو "البلاد الشّاميّة" أو "**خليفة الشيخ**" دون تحديد ، وإن يكُنْ المقصود في هذه ، بدلالة الإشارة ، في مُستقرّه . أي ما هو أعمُّ من "طرابلس" و "الشام" .

(3)

سأبدأ بتتبُّع الخبر في المصادر، ابتغاءَ معرفةِ أصله ومصدره الرئيس . وذلك يقتضي الوقوفَ عليها حسبَ تسلسلها التاريخي الأقربُ فالأبعد :

1 . الشيخ جعفر السبحاني . في الترجمة التي علّقها لابن البرّاج :" **فقيه عصره وقاضي زمانه** و**خليفةُ الشيخ في الشّامات** " [7] .

2 . السيّد حسن الصّدر (ت :1354هـ/ 1935م) :" **القاضي ابن البرّاج [. . . .] لازم شيخ الطائفة أبا جعفر الطوسي حتى صار خليفة الشيخ**" [8] .

3 . الشيخ أسد الله التستري (ت:1237هـ / 1821م) :" . . . **ابن البرّاج الطرابلسي الشامي . وهو من غلمان المُرتضى . وكان خصيصاً بالشيخ [الطوسي] وتتلمذ عليه ، وصار خليفته في البلاد الشاميّة**" [9] .

---

(7) السبحاني : تذكرة الأعيان ، ط . قم 1419 هـ / 76 .

(8) الصّدر : تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام ، ط . بيروت 1401 هـ / 1981م / 304 .

(9) التستري : مقابس الأنوار ونفايس الأسرار ، ط . إيران 1322هـ / 7 .

4 . محمد باقر الخوانساري (ت:1313هـ / 1895م) . ليس له كلامٌ في هذا ، وإنما يقتبسُ نصّ عبد الله أفندي الآتي عن الكركي[10] .

5 . عبد الله أفندي الإصفهاني (ح: 1106هـ / 1694م) . ليس له كلامٌ في هذا أيضاً . ولكنه اقتبس عن الشيخ علي بن عبد العالي الكركي(ت: 940هـ / 1533م) في إجازته للشيخ برهان الدين أبي إسحق إبراهيم بن علي الميسي قوله : " **الشيخ السعيد خليفة الشيخ الإمام أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي في البلاد الشاميّة عزُّ الدين عبد العزيز بن نحرير بن البرّاج**" [11] .

6 . أحمد بن نعمة الله العيناثي (ح: أواخرالقرن 10هـ/ 16م) . قال في إجازته لعبد الله التُّستري :" **القاضي عز الدين عبد العزيز بن البرّاج هذا هو خليفة الشيخ أبي جعفر رحمه الله في البلاد الشاميّة** " [12] .

إذن ، فأصلُ الخبر هو عن الشيخ الكركي ، ثم عن أحمد بن نعمة الله العيناثي . ومن المعلوم أنّ الكركيَّ حضر في "عيناثا" ، بلدَ أحمد بن نعمة الله ، حيث نال إجازةً من محمد بن علي بن خاتون العيناثي بتاريخ "**حادي عشر ذي الحجّة تسعمئة هجريّة هلاليّة**" / 19 تشرين الأول 1495م) [13] . ممّا يدلّنا على الطريق الذي سلكه الخبرُ من الكركي إلى العيناثي ، لينتشرَ عنهما .

من هنا يحقُّ لنا أن نُخمّنُ أن الخبرَ إنما هو اجتهادٌ صِرفٌ من الكركيّ عن غير نص . بدليل أننا لا نجدُ له ذكراً في المصدريَن المُعاصريَن ، لا عند مُنتجب الدين في (الفهرست) ، ولا عند ابن شهرآشوب في (معالم العلماء) ، ثم ولا عند

---

(10) الخوانساري : روضات الجنات في أحوال العلماء والسّادات ، ط . قم 1391هـ : 4 / 204 .

(11) الإصفهاني : رياض العلماء وحياض الفضلاء ، ط . قم باعتناء السيّد أحمد الحسيني 1401هـ : 3 / 144 .

(12) بحار الأنوار ، ط . بيروت 1403 هـ / 1983م : 109 / 94 . 96 .

(13) نفسه : 108 / 20 . 27 . وانظر كتابنا "جبل عامل بين الشهيدَيْن" ، ط . دمشق 2005م / 197 .

الحرّالعاملي في (امل الآمل) . وإذا كان من المُمكن القول أن غيابَه عن نصّ مُنتجب الدين الرّازي هو بسبب بُعد هذا عن ميدان حياة ابن البرّاج ، فإنّ تفسيراً كهذا غير واردٍ بالنسبة لابن شهرآشوب ، المُعاصر لابن البرّاج ، وعاش في "حلب" غير البعيدة عن "طرابلس" . ومن المعلوم أنّ الكركيَّ هو ابنُ مدرسة الشهيد الأوّل ، التي منحتْ الفقيهَ لأوّلِ مرّة صلاحيّاتٍ تنظيميّة واسعة [14]. ومن هنا ، فيما يبدو لنا ، تحرّكَ ذهنهُ من العلاقة ، التي نعرفُ من فصلٍ سابقٍ كم كانت مُلتبسةً ، بين الشيخ الطوسيّ وابن البرّاج في "بغداد" . فتصوّرَها وصوّرَها لمَن بعده علاقةً تنظيميّةً بمعنى من المعاني بعد أن استقرّ بهذا المقامُ في وطنه . والعارفُ بما كان عليه حالُ الفقيه في الفكر الفقهي في زمان الشيخ الطوسي . وأيضاً بما كان عليه وضعُ التشيّع في "الشام" في ذلك الأوان ، حتى مع الأخذ بعين الاعتبارالاختراقَ العراقي له ، الذي بدأ على يدِ الكراجكي ، وبيّناه في كتابنا (الكراجكي عصره سيرته عالمه الفكري مُصنفاته) . ، مَنْ يعرفُ كلَّ هذا ، يرى معنا أن ما أتانا به الشيخُ الكركيُّ ونشَرهُ ، ثم تناقله أربابُ التصانيف من بعده دون تمحيص ، هو إسقاطٌ من زمنٍ مُتأخّرٍ على زمنٍ مُتقدّمٍ. الثابتُ والمؤكّدُ في هذا النّطاق هو ما انتهينا إليه من كلامٍ سابقٍ قبل قليل تحت عنوان "مع الشيخ الطوسي" ، من أنّ علاقةً متينةً ومديدةً ومُثمرةً قامتْ بالفعل بين الاثنين بعد أن افترقتْ بهما السُّبُل. ولكنها بمقدار ما هو ثابتٌ منها لم تكُن على نحو الخلافة ، أي أنها لم تتحرّكُ من الطوسي باتجاه ابن البرّاج ليعملَ وفقَ إرادته ونظره وتوجيهه ، كما تقتضي الوكالة ، بل كانت على العكس تماماً ، أي تتحرّكُ من ابن البرّاج باتجاه الشيخ . وذلك عبرَ العديد من الاقتراحاتِ البارعة لموضوعات تصنيف . عمل بها الشيخُ دون أن يُخفي دورَ تلميذه النجيب فيها كما عرفنا فيما فات .

---

(14) انظر كتابنا : الشهيد الأول عصره سيرته أعماله وما مكث منها ، المنشور في مقدمة "موسوعة الشهيد الأول" ، ط . قم 1430هـ / 2009 م / 214 وما بعدها .

(4)

بعد هذا ، علينا أن ننصرفَ إلى الكلام على أعمال ابن البرّاج في "طرابلس"، بادئين بالتدريس ، لأنه ينطوي على دلالتيَن هامّتيَن مُتلازمتيَن . فهو يدلُّ على الموقع العلميّ العالي الذي اكتسبه في وطنه . ذلك أنّ الناس لا يُقبلون على الأخذ عن شيخٍ ما لم يكونوا يعترفون له بالأهليّة التّامّة ، وهذا واضح . بيدَ أنّ الدّلالة الأكثرأهميةً هي أنّ إقبالهم دليلٌ على التحوّلات العميقة السريعة التي كانت عالقةً في المدينة ، ممّا يندرجُ فيما رأينا فيه اختراقاً من التشيّع العراقي الفقهي . الكلامي للتشيّع الشامي الشّعبي العاطفي .

الوسيلةُ الوحيدةُ المُتاحَةُ لتتبّع أعمالِ ابن البرّاج في هذا النطاق ، هي الوقوفُ على الفقهاء الذين تقولُ المصادرُ ، بلسانٍ أو غيره ، أنهم من تلاميذه أو ممّن روَوا عنه . على أنّ هذه الوسيلة ليستْ وافيةً ، لأنها لا تأتينا في سياقِ عملٍ مقصودٍ يتناسبُ مع غرضنا منها . وإنما تأتينا ضمن الترجمة لهذا وذاك من أولئك الفقهاء، أو ضمن نصوص الإجازات . وهذه مسألة تخضعُ لعوامل مُختلفة ، ليستْ دائماً في مصلحة وُصول النصّ سالماً إلينا ، إن لم نقُلْ أنّ العكسَ هو الصحيح .

مهما يكُنْ ، فإننا سنُحصي فيما يلي أسماءَ هؤلاء التلاميذ والرُّواة عنه ، بادئين بأرفعهم ذكراً :

. 1 : أسعد بن أحمد بن أبي روح . أجلُّ تلاميذ ابن البرّاج ، وخليفته في منصب القضاء في "طرابلس" ، كما تولّى (دار الحكمة) فيها .

أعلى فقهاء الشيعة في "الشام" شأناً بعد وفاة أستاذه . وله ذكرٌ عريضٌ في المصادر غير الشيعيّة ، التي تصِفُهُ بكلّ جميل . من ذلك أنه كان مُتعبّداً زاهداً عظيم الصلاة والتهجّد ، لا ينامُ إلا بعضَ الليل . وأنه عُقدت له حلقةُ الإقراءِ بـ "الشام" ، وانفردَ بـ "الشام" و "طرابلس" و "فلسطين" . وهذا يدلُّ على حُضورٍ واسعٍ ومؤثّرٍ في منطقةٍ شاسعة . يبدو أنه كان يقتضي منه الحركةَ الدّائمة فيها ،

مثل سلفه البعيد الكراجكي . كما يدلّ على المركز المعنوي الذي اكتسبته "طرابلس" بسرعة في مداها الحيوي . وأيضاً على التهيؤات الكامنة لدى القواعد الشيعيّة الواسعة الانتشار في المنطقة ، بحيثُ أنها لم تكُن بحاجةٍ إلا إلى أدنى باعث لتصحيح مسارها ، بعد أن اختلفتْ السّبُلُ بين جناحَي التشيّع الإمامي في "العراق" و"الشام" .

يُذكر لابن أبي روح عنايته الخاصّة بالفقه المُقارَن . ومن ذلك أنه صنّف ثلاثة كُتُب في هذا الباب هي : (البيان بيننا وبين النعمان) و(التبصرة في خلاف الشافعي للإماميّة) و(المُقتبس في الخلاف بيننا وبين مالك بن أنس) .

على أننا لا نعرف ما يُذكَرُ عن أصله ومنبته . ونُرجّحُ أنه طرابلسي الأصل والنشأة . ومن المُؤكّد أنّ ابن البرّاج هو أستاذه الوحيد .

يبدو أنه خرج من "طرابلس" أثناء حصارها الطويل أوعند سقوطها بيَدِ الصليبيين سنة 503هـ/1109م . قيل تحوّلَ عنها إلى "حيفا" ، وأنه قُتل فيها حينما ملكها الصليبيّون . وقيل بل تحوّلَ إلى "دمشق" ومات بها . كما قيل أنّ تحوّله كان إلى "صيدا" حيث مات أو قُتل . وفي هذه المدينة حتى اليوم قبرٌ قديمٌ يُسمّيه الناس قبر ابن روح . يؤيّدُ ذلك قولُ الذهبي في (سير أعلام النبلاء) :" **سكن صيدا إلى أن أخذتها الإفرنج فقُتل بها**" [15]. وهذه عُجالةٌ اقتضاها البحث. وسنفي للقارئ

---

(15) مصادر الترجمة له كثيرة ، نذكرُ أهمّها ممّا استفدنا منه في كتابة هذه الخلاصة : الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ط . بيروت 1405هـ/ 1984م : 19 / 500.499، تاريخ الإسلام ووفيات المشاعير والأعلام ، ط . بيروت 1409هـ/1989م (520.501) / 49.447، ميزان الاعتدال، ط . بيروت 1382هـ/1963م :210/1، الصفدي: الوافي بالوفيات ، ط . بيروت ، المعهد الألماني في سنواتٍ مُتعدّدة :40/9 ، روضات الجنات:113/1، ديوان ابن الخياط/22.121، طبقات أعلام الشيعة(النابس) /30 ، وفيه :" كان قاضياً من قبل ابن عماد المهدي الذي قتله المعتمد العباسي بيده" . وهذا سهوٌ فاحشٌ من شيخنا . وانظر كتابنا : أعلام الشيعة ،ط. . بيروت2010م . وفيه نذكر مصادرإضافيّة .

إن شاء الله بما وعدناه به من تذييل الكتاب بما هوأوسعُ من هذا .

ـ 2 : عبد الجبّار بن عبد الله المُقري الرّازي . يُنسَبُ إلى "نيسابور" في شمال "إيران" ، ثم إلى "الرّيّ" ، بلدٌ قديمٌ صار اليومَ من ضواحي "طهران" ، فيُقالُ :" النيسابوري ثم الرّازي" . ويُفهم من ذلك أن أصله من "نيسابور" وتوطّن "الرّيّ .

قرأ على الشيخ الطوسي جميع تصانيفه ، وأجازه في "النجف" سنة 460هـ/1067م ، وهي سنة وفاة الشيخ . كما قرأ على حمزة بن عبد العزيز المعروف بسلاّر الديلمي وعلى ابن البرّاج .

ذكره مُنتجَبُ الدين فقال :" فقيه الأصحاب بالرّيّ . قرأ عليه في زمانه قاطبةُ المُتعلّمين من السّادة والعلماء " . ويؤخذُ من ذلك أنه بعد أن غادر "النجف" توطّن في "الرّيّ" زمناً غير قصير، يومَ كانت مركزاً علميّاً . ولكنه لأمرٍ ما غادرها إلى "طرابلس" ، مُلتحقاً بشيخه ابن البرّاج ، حيث أمضى ما بقي له من العمر. وعاش بعد وفاة شيخه ، وتوفي فيها ودُفن في حُجرته [16].

ـ 3 : عبد الرحمان بن أحمد الخُزاعي النيسابوري . المعروف بالمُفيد النيسابوري .

قرأ في "بغداد" على السيّد المُرتضى وأخيه الرّضي والشيخ الطوسي . وارتحل إلى "طرابلس" حيث قرأ على الكراجكي وابن البرّاج . والظاهر أنّ دخوله "طرابلس" كان في سياق رحلةٍ واسعة زار أثناءها "الشام" و "الحجاز" و"خراسان" .

---

(16) الفهرست لمُنتجَب الدين / 75 وانظر فهرست الأعلام ، أمل الآمل : 2 / 143 ، ابن شهرآشوب المازندراني : مناقب آل أبي طالب ، ط . بيروت 1412هـ / 1991م : 1 / 33 ، رياض العلماء : 2 / 66 ، أعيان السيعة : 7 / 433 ، طبقات أعلام الشيعة (النابس) 103و 107 ، السيّد الخوئي : معجم رجال الحديث ، ط . بيروت 1403هـ / 1983م : 9 / 261 ، اللجنة العلميّة في مؤسسة الإمام الصادق : موسوعة طبقات الفقهاء ، ط . قم في سنوات متفاوتة : 6 / 29.128 ، آغا بزرك الطهراني : الذريعة ، ط . بيروت ، دار الأضواء لات : 1 / 233 .

وتحمّلَ حديثاً كثيراً عن مُحدّثي الشيعة والسُّنّة" على حدّ ما قاله مُنتجبُ الدين .

قال فيه الذهبي في (تاريخ الإسلام) :" **مُحدّثٌ حافظٌ رحّالٌ كثير الفضائل ، لكنه غالٍ في التشيّع** " .

توطّن "الرّيّ حيث غدا " شيخُ الأصحاب بالرّيّ " ودائماً على حدّ قول مُنتجب الدين . وفيها توفي [17] .

. 4 : الحسن بن الحسين ابن بابويه القُمّي . المعروف بـ (حسكا) ، وهي كلمةٌ منحوتةٌ من حسن كيا . وكلمة "كيا" وصفُ تعظيمٍ للشخص في لغة بعض مناطق "إيران" .

هو جدُّ مُنتجب الدين صاحب (الفهرست) . ومن بيت علم أنجب العديدَ من معارف الفقهاء .

ارتحل إلى "بغداد" فقرأ فيها على الشيخ الطوسي وعلى سلاّربن عبد العزيز. والظاهر أنه مع خروج الطوسي منها ، أو قُبيل ذلك ، ارتحل هو إلى "طرابلس" ، فأقام فيها مُدّةً غير قصيرة . عرفنا ذلك من قول الحر العاملي في (أمل الآمل) أنه "**قرأ فيها على ابن البرّاج جميعَ تصانيفه**" [18] .

---

(17) فهرست مُنتجب الدين / 108 ، الذهبي : تاريخ الإسلام (490.481) / 151 ، لسان الميزان: 3 / 404 ، الكنى والألقاب : 3 / 199 ، طبقات أعلام الشيعة (النابس) / 104 ، موسوعة طبقات الفقهاء : 5 / 162 ، اسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين : ط . بيروت مُصوّرة عن طبعة استامبول 1955م : 1 / 518 ، كحالة : معجم المؤلفين ، ط . بغداد ، مكتبة المُثنّى ، لات : 5 / 117 .

(18) فهرست منتجب الدين / 42 ، أمل الآمل : 2 / 64 ، رياض العلماء : 1 / 179 ، تنقيح المقال ، ط . إيران طبعة حجريّة ، لات : 1 / 273 ، طبقات أعلام الشيعة (النابس) / 56 ، معجم رجال الحديث : 4 / 304 ، قاموس الرجال : 3 / 149 ، موسوعة طبقات الفقهاء: 6 / 70.69 ، أعيان الشيعة : 5 / 50.49 ، مجمع الرجال : 2 / 102 ، جامع الرّواة : 1 / 193 .

. 5 : عز الدين عبد العزيز بن أبي كامل الطرابلسي . لا نعرفُ عنه الكثير. ولكن يؤخذ من مشيخته ، كما تقولها بعضُ المصادر ، أنه أخذ عن الشيخ الطوسي والسيّد المرتضى وأبي الصّلاح الحلبي والكراجكي وابن البرّاج . ممّا يمكن أن نفهمَ منه أنه درس في "العراق" و "حلب" و "طرابلس" .

تصفه أكثرُ المصادر بـ " **القاضي** " ، وهذا أمرٌ غير مفهوم ، لأن المعروف أنّ أسعد بن أحمد بن أبي روح هو آخرُ قاضٍ في المدينة قبل أن يحتلّها الصليبيّون . إلا أن يكون قاضياً في بلدٍ آخر، أو أن يكون هناك أموراً لا نعرفها عن منصب القضاء وأحواله في "طرابلس" .

هذا ، ويُذكَرُ الفقيه الطرابلسي المُتقدّم الحسين بن عبد الله بن أبي كامل ، الذي يبدو أنه من أُسرة صاحبنا . وكان حيّاً سنة 410 هـ / 1019م . والذي لا نعرفه إلا من لقائه بالكراجكي في مدينة "الرّملة" بـ "فلسطين" بذلك التاريخ . ولولا أن الكراجكي ذكر لقاءه وسماعه منه لَما عرفنا بوجوده أصلاً [19]. نقولُ ذلك لاحتمال أن يكون هو والد عبد العزيزهذا ، وهوالذي لا تذكرُ كافة المصادر اسمَ أبيه ، لمناسبة الاسم والطبقة .

. 6 : أبو محمد الحسن بن عبد العزيز بن الحسن الجبهاني . هذا أيضاً لا نعرفُ عنه ما يُغني. والقليل الذي نعرفه عنه مصدره الوحيد مُنتجَبُ الدين في (الفهرست) . وعنه تقتبسُ كافةُ المصادر المذكورة أدناه .

قال :" **فقيهٌ ثقةٌ . قرأ على الشيخ المُوفّق أبي جعفر الطوسي والشيخ ابن البرّاج رحمهما الله** " . فمن هنا نعرفُ أنه ارتحل إلى "بغداد" ، حيث حضر على الشيخ الطوسي . والظاهر أنه غادرها مع مُغادرة أستاذه لها ، أو قُبيل ذلك . مثلما فعل

---

(19) أمل الآمل : 2 / 149 ، رياض العلماء : 3 / 135 ، روضات الجنات : 4 / 204 ، مستدرك الوسائل : 3 / 480 . وفيما يخصّ قريبه ، وربما والده ، الحسين انظر : الكراجكي : التفضيل / 14 و 21 .

زميله حسكا القمّي ، كما قُلنا في الترجمة التي علّقناها له أعلاه . واتجه إلى "طرابلس" مُلتحقاً بابن البرّاج .

هذا ، ثم أننا لا نعرفُ إلى مَ نسبته الغريبة :"الجبهاني" . ولا ذكر لهذه النسبة في الكُتب المعنيّة بالأنساب ، كما أنه لا ذكر في كُتب البلدان لبلدٍ أو موقعٍ يُمكن أن تكون النسبة إليها . ممّا يزيدُ من جهالتنا به . كلُّ ما أتانا به مُنتجب الدين ، ممّا له علاقةٌ بمنبته ، هو وصفه إياه بـ "**المُعدّل بالقاهرة**" . والمُعدّل ، وقد يُسمّى الشاهد ، هو مَن يعملُ في وظيفةٍ مُلحقةٍ بالجسم القضائي، تُشبه وظيفة مُسجّل العقود اليوم . عمله توثيق العقود وما إليها ، ثم عرْضُها على القاضي . فإن وجدها هذا وافيةً بالشروط الشرعيّة وشّحها بتوقيعه . وإذ ذاك تكتسبُ صفةَ القضية المُحكَمَة . أمّا قوله : " **بالقاهرة** " فواضحٌ . ونُرجّحُ أن عمله هذا فيها كان قبل أن يرتحلَ إلى "بغداد" . لأن مُنتجَبَ إنما عرفه وعرفه خصوصيّاته أثناء إقامته فيها . ولم يكن لديه ، وهو الرّازيُّ كما نعرف ، أدنى فرصة لمعرفة شؤونه بعد أن قفل عائداً إليها ، إن كان قد عاد بالفعل [20].

. 7 : أبو الفتح الصّيداوي . مجهول . لا يُذكَرُ إلا بمُناسبة ذكر شيخه ابن البرّاج ، وغالباً بوصفه تلميذه . وهو ، كما تدلّ نسبته ، من مدينة "صيدا" السّاحليّة ، التي تبعُدُ عن "طرابلس" مسافة مائة وعشرين كيلو متراً تقريباً جنوباً . وكانت في ذلك الأوان مدينةً شيعيّة أو ذات غالبيّة شيعيّة على الأقل ، كأكثر حواضرالساحل اللبناني . ونحن نعرفُ من سيرة الكراجكي أنه أولى أهلَ هذه المدينة عنايته فيما أولاه . ولهم صنّف كتابيَن هما : (الإيضاح في أحكام النكاح)

---

(20) مُنتجب الدين : الفهرست / 47 ، أمل الآمل : 2 / 67 ، رياض العلماء : 1 / 208 (وفيه : " العدلُ بالقاهرة ") ، طبقات أعلام الشيعة (النابس) / 52 ، محمد مهدي بحر العلوم : الفوائد الرجاليّة ، ط . النجف 1385 هـ / 1965م : 3 / 63 (وفيه : " **الحسين** بن عبد العزيز" ، خطأٌ طباعي على الأرجح) ، أعيان الشيعة : 5 / 133 .

و (انتفاع المؤمنين بما في أيدي السّلاطين) [21] . فهذا يدلّ على الخلفيّة التي أتى منها هذا الفقيه الجليل .

إنّ أوّلَ ذكرٍ لهذا الفقيه ، بمقدار ما بحثنا ، هو لدى الشهيد الأوّل (ق : 786هـ/ 1384م) . ولا غرو في ذلك فهو ابنُ "جزّين" جارةُ "صيدا" . ممّا يدلُّ على أنّ ذكرَ أبي الفتح كان باقياً بقاءً ما بين الخواصّ على الأقلّ في المنطقة التي عاش فيها ، بعد زهاء الثلاثة قرون من وفاته المُقدّرة . خصوصاً إذا لاحظنا أنّ ذكرَه لدى الشهيد جاء على نحوٍ مقلوبٍ ، أي ليس بوصفه تلميذاً لابن البرّاج ، بل بوصف هذا أستاذاً له :" **وكان [أي ابن البرّاج] أستاذَ أبي الفتح الصيداوي** " [22]. ولعلّه لذلك قال فيه عبد الله أفندي :

> " **كان [أبو الفتح الصيداوي] من أعاظم تلامذة بعض تلاميذ السيّد المُرتضى . ويظهر من بعض فوائد الشهيد في طيّ ذكر تلامذة المُرتضى ، أنّ القاضي ابن البرّاج ، الذي هو من تلامذة السيّد المُرتضى ، كان أستاذ أبي الفتح الصيداوي . وهذا من علماء أصحابنا . ولم أجده في كُتب الرجال** " [23].

ذلك أنّ ذكرَه ضاع في كوارث الأيام الآتية . ومنها سقوط بلده "صيدا" تحت الاحتلال الصليبي ، الذي حصل إبّان حياته على الأرجح . وكان من نتائجه أن دخلَ مصيره هو في ظُلمة التاريخ ، فلا نعرفُ ما كان مصيره . وربما قُتل في الوقعة ، كما قيل في مصير أستاذه [24] .

---

(21) مُستدرك الوسائل : 3 / 498 .

(22) بحار الأنوار : 107 / 199 .

(23) رياض العلماء : 5 / 493 .

(24) انظر بالإضافة إلى ما ذكرناه من مصادر : روضات الجنات : 4/ 405 .

. 8 : أبو جعفر محمد بن علي بن الحسن (المُحسن ؟) الحلبي . وهو، كما تشهدُ نسبته ، من "حلب" . ينفردُ الحرّ العاملي في (أمل الآمل) بالقول أنه " **أدرك الشيخ أبي جعفر الطوسي وروى عنه** " [25]. وليس في نصوص الإجازات التي بين يدينا ما يؤيّدُ ذلك .

حضر في "طرابلس" على الكراجكي ، فقرأ عليه كتابه (معدن الجواهر ورياضة الخواطر) [26] وأجازه بقراءته . وله منه إجازةٌ أُخرى فيما يبدو، وردتْ الإشارةُ إليها في إجازة زين الدين علي بن حسّان الرّهمي لسديد الدين الحسين بن خشرم الطائي [27]، وفي الإجازة الكبيرة من العلاّمة الحلّي لبني زُهرة الحلبيين [28]. وأكثر روايته عن ابن البرّاج . ويؤخذُ من إجازة الشهيد لتلميذه محمد بن عبد العليّ بن نجدة أنه قرأ عليه جميعَ مُصنّفاته . قال :"

[. . .] وأمّا مُصنفات القاضي الإمام [. . . .] عز الدين عبد العزيز بن البرّاج رحمه الله فإنّي أرويها [. . . .] عن الشيخ أبي جعفر محمد بن علي بن الحسن الحلبي عن القاضي ابن البرّاج رحمهم الله جميعاً " [29] .

فمن كلّ هذا نفهمُ احتمالَ ، مُجرّدَ احتمال ، أن يكونَ قد ارتحلَ إلى "العراق" ولقي الشيخَ الطوسيَّ واستجازه ، وأنه قرأ على الكراجكي بعد أن استقرّ بهذا المقامُ نسبيّاً في "طرابلس" . ولكن أكثر قراءته ، بشهادة ما قُلناه أعلاه ، كانت

---

(25) أمل الآمل : 2 / 289 .

(26) الكراجكي : معدن الجواهر ، ط . قم 1330هـ باعتناء السيّد حسين الموسوي البروجردي / 34 .

(27) بحار الأنوار : 107 / 72 .

(28) نفسه : 107/ 128 .

(29) أيضاً : 107 / 198 . وانظر : روضات الجنات : 4 / 204 .

على ابن البرّاج . وذلك أمرٌ مفهومٌ جدّاً ، لِما نعرفه من كثرةِ تجوال الكراجكي في البلاد حتى في السنوات الأخيرة من حياته .

. 9 : أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الحلبي . كل ما نعرفه عنه مصدره علي بن عبد العالي الكركي في إجازته لعلي بن عبد العالي الميسي وولده إبراهيم ، حيث قال :

" ومن ذلك جميع مُصنفات الشيخ السعيد الفقيه العلاّمة عزّ الدين عبد العزيز بن البرّاج [. . . .] عن الشيخ الإمام السعيد قُطب الدين أبي الحسين الراوندي ، عن الشيخ ابي جعفر محمد بن الحسن الحلبي ، عن القاضي عز الدين عبد العزيز بن البرّاج رحمه الله ورضي عنه " [30] .

فإذا لم يكُنْ ها هنا تصحيفٌ في اسم الحلبي ، سقطتْ به كلمة "علي" ، وجعل هذا يبدو غير سابقه ، فهذا يعني أنه كان هناك تلميذان لابن البرّاج من بلدٍ واحدٍ ، يحملان اسميَن على هذه الدرجة من التشابه . وهذا أمرٌ غير مُمتنع بحسب المبدأ . يؤيّدُ ذلك أنّ الحرّ العاملي ترجم لكلٍّ من الاثنيَن ، وأوردَ اسمَ هذا حتى جدّه الثالث [31] خلافاً لِما درجَ عليه في كتابه . وكأنه يُريدُ بذلك أن يُلمّحَ إلى أنه مُلتفتٌ إلى ما في الأمر من إشكال ، وأنه مع ذلك يُسوّغُ الفصلَ بين الاثنيَن . كما أنه وصفَ هذا بأوصافٍ عالية :" **كان مُحققاً مُدققاً فاضلاً صالحاً عابداً . يروي عن الشيخ الطوسي وعن ابن البرّاج** " . في حين أنه اقتصر على وصفِ سابقه بالقول : " **فقيهٌ صالحٌ** " [32] .

---

(30) بحار الأنوار : 108 / 64 .

(31) أمل الآمل : 2 / 259. قال :" **أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي بن الحسن بن علي الحلبي** " .

(32) نفسه : 2 / 289 .

يبقى بعد هذا خليطٌ مُضطربٌ من الاسماء ، تسوقُ معلوماتٍ مُتضاربةٍ عن أصحابها . بعضها يقول أن هذا أو ذاك تلميذٌ أو ممّن يروي عن ابن البرّاج . ولكنها إجمالاً، بما فيها من اضطرابٍ وتضارُب ، لا تؤدّي بالباحث إلى كبير أمر، سوى أن تحولَ بينه وبين أن يصِلَ إلى نتائجَ تطمئنُّ إليها نفسه . من الممكن أن نقولَ الكثيرَ في تحليلها ونقدها والمُقارنة بينها والعمل على استخلاص النتائج منها. والحقيقة أننا قد حاولنا ذلك ، فلم نخرج إلا بتسويد الصحائف على غير طائل . ولذلك فإننا سنكتفي بالإشارةِ إلى تلك الأسماء إشارةً مع ذكر مصادرها .

. عبد الله بن عثمان الطرابلسي [33].

. عبد الله بن عمر الطرابلسي [34] .

. أبو عبد الله محمد بن عمر الطرابلسي [35].

. كُميح / كُميح الحبشي [36].

(5)

فمن كلِّ هذا نعرفُ أنه أثناء عقودٍ قليلةٍ من السنين نجحتْ "طرابلس" ، بفضل الرائد الكراجكي ثم بفضل خلَفه ابن البرّاج ، في أن تُثبّتَ قدمها باتجاه مُنطلَقٍ جديد ، نحو حياةٍ فكريّةٍ مُزدهرةٍ . لستُ أعلّقُ كبيرَ امرٍعلى عديدِ تلاميذهما فقط ، وإن يكن في هذا مغزىً غيرمنكور. بيدَ أنّ المغزى الأكبرهو في كشفِ ما وصفناه عن الحوافز الكامنة تحت ذلك الغطاء الخابي ، الذي كان من قبل يُغلّفُ

---

(33) أمل الآمل : 2 / 162 ، رياض العلماء : 3 / 225 . 26 .

(34) بحار الأنوار : 108 / 47 و 52 ، رجال ابن داود ، ط . طهران 1343 هـ . ش . باعتناء المُحدّث الأرموي / 7 . 8 .

(35) أمل الآمل : 2 / 292 .

(36) رياض العلماء : 4 / 414 ، طبقات أعلام الشيعة (الثقات العيون) / 331 ، مستدرك الوسائل : 3 / 491 .

المدينةَ العريقة ، بحيث حصلتْ الاستجابةُ السّريعة لحضور وأعمالِ الرجلَين على النحو الذي رأيناه . إنّ الأمرَ يُشبهُ هنا ما يُسمّى بالتفاعل المُتسلسل . حيثُ ليس على صاحب المُبادرة إلا أن يبدأه ، ثم لا يكونُ على المحلِّ القابلِ إلا أن يُتابعَ التطوّر ويُعمّمه بالطاقةِ أو المَيْل الذّاتيّ الكامن فيه .

هكذا رأينا أنّ بادرةَ الكراجكي أنجبتْ في مَن أنجبتْ ابنَ البرّاج . ليستلمَ القيادَ بعد سلفه ، ثم ليحُثَّ السيّرَ بالرّايةِ قُدُماً ، أستاذاً ومُصنّفاً ، لتغدو "طرابلس" في زمانه ظاهرةً ثقافيّةً هي الأبرزُ في غرب "الشام" . ولولا غائلة الخروج على عمود البحث لكان علينا أن نُتابعَ وصفَ المسيرة على أيدي تلاميذه . وأبرزهم ابنُ أبي روح . الذي قُدِّرَ له أن يندمج فيها ، ثم أن يشهدَ مأساةَ نهايتِها الفاجعة . بل وأن تكون حياته من جملة وقودها .

في سبيل تقييمٍ أفضل للإنجاز الذي تمّ في "طرابلس" ، يمكنُ أن نُقارنَه بنهضة "جبل عامل" الكُبرى بعد ثلاثة قرون . فهذه اقتضتْ عملَ ثلاثة قرون . هي ما بين رائدها إسماعيل بن الحسين العودي الجزّيني (ت : 580هـ/ 1184م) وأعمالِ باعثها وبانيها الشهيد الأول محمد بن مكّي الجزّيني (ق:/ 786هـ/ 1384م)[37] . أمّا "طرابلس" فقد عبرتْ الجسرَ إلى النهضة في زُهاء نصف قرنٍ فقط . هي المُدّة ما بين مُبادرة الكراجكي بالنّفْر إلى "بغداد" ، حتى صيرورة "طرابلس" حاضرةً علميّةً مُزدهرة إبّان حياة ابن البرّاج . وما من شكٍ في أن الذي منح "طرابلس"هذا الامتيازهو وضعُها السياسيّ والإنتاجيّ والجغرافيّ والثقافيّ المؤاتي . ممّا فصّلنا الكلام عليه تفصيلاً بقدر الضرورة في أُوليات هذا القسم .

---

(37) لمن يرغب في تفصيل ما أوجزناه هنا : كتابنا "جبل عامل بين الشهيدَيْن" ط . دمشق 2005م / 67 وما بعدها .

2 . ابنُ البرّاج قاضياً .

يشتهرُ ابنُ البرّاج في الأدبيّات الشيعيّة بلقب "القاضي" ، بحيثُ أنه إذا أُطلِق انصرفَ إليه حصراً . وعلى ذلك نصوصٌ كثيرة ، أعلاها ما لدى مُعاصره مُنتجبُ الدين الرّازي [1] . الذي نعرفُ أنه عاش في "الرّيّ" في القرن السادس للهجرة / الثاني عشر للميلاد . فوصوله ، اعني اللقب ، في هذا التاريخ المُبكّر إلى "إيران" دليلٌ على انتشاره الواسع . ثم أننا نجِده لدى الشهيد الأوّل في القرن الثامن / الرابع عشر وقد بات لقباً مُطلَقاً ، أي لا حاجةَ معه لإيراد الاسم ، وذلك في كتابه (الدروس) [2] . وقد التقط مصطفى التفرشي ، من أعلام القرن الحادي عشر/ السابع عشر ، مغزى ذلك فقال :" **فقيه الشيعة المُلقّب بالقاضي** " [3] .

نُلاحظُ هنا أنّ هذه أوّل مرّة يدخلُ فيها هذا اللقبُ الأدبيّاتِ الشيعيّةِ ، لقباً تشريفيّاً إضافيّاً لفقيه . ذلك أنّ المِزاجَ الشيعيّ لم يرتَحْ من قبلُ يوماً إلى حَمَلة هذا اللقب ، لأن ذاكرته رأت فيهم دائماً بحقّ ذيلاً للسَ ُلطة . يضطرُّ صاحبه ، بحكم موقعه الهشّ المُعلّق على إرادتها ،لأن يكونَ مُقيّداً بميلها وراعياً لمصالحها . الأمرُ الذي ينتزعُ منه شرطاً أساسيّاً من شروط العدالة في إدارة الخصومة وفي إصدار الحُكم ، هو استقلالُ القاضي وحُريّتُه . أمّا الآن فالأمرُمُختلف . ها هنا قاضٍ لا ريبَ في علمه وعدله وسَداده وتقواه ، وسُلطةٌ على راسها أُميرٌ مُستنيرٌ ، عُرفَ بالعِفّةِ والسّداد ، سنعرفُ أنه جلال المُلك أبو الحسن علي بن عمّار. إذن ، فما من عجبٍ في أن تحتفلَ تلك الأدبيّاتُ ذلك الاحتفال بأوّلِ قاضٍ منها شغلَ المنصبَ

---

(1) الفهرست / 74 .

(2) بحار الأنوار : 109 / 198 .

(3) نقد الرجال : ط . بيروت 1419 هـ / 1999م : 3 / 68 .

بحقّه ، فتمنحه لقبَ القاضي على الإطلاق .

بين أيدي الباحثِ في هذا النطاق نصّيَن مُبكّرِيَن غنيّيَن ، يؤرّخان لغير شأنٍ من شؤون قضاء ابن البرّاج على "طرابلس" . مصدرُهما الأوّلُ كلاهما الشهيدُ الأوّلُ محمد بن مكّي الجزّيني (ق:786هـ/1384م) . الذي نعرفه جيّداً بوصفه مَعنيّاً عنايةً خاصّةً بأخبارِ وسِيَرِ علماء الشيعة من قبله ، خصوصاً في المنطقة الشّاميّة . أمّا مصدرُهما المُباشراللذيَن أخذناهما عنه فهو عبد الله أفندي الإصفهاني في كتابه المُمتاز (رياض العلماء وحِياضُ الفُضلاء) . وهوالذي نعرفه أيضاً مُنقّباً مُدقّقاً لا يكلّ . وقد سجّل لمن بعده معلوماتٍ هامةً عن الكثيرين ممّن ترجم لهم في كتابه . كانت قمينةً بأن تضيعَ لولاه .

في النصّ الأوّل :

" قال الشيخُ الشهيدُ في بعض فوائده في بعض مجاميعه ، في طيّ ذكر تلامذة السيّد المُرتضى : ومنهم ابنُ البرّاج . وكان قاضي طرابلس . ولاّه القاضي جلالُ المُلك رحمه الله " [4] .

وفي النصّ الثاني :

" قد وجدتُ منقولاً عن خطّ الشيخ البهائي عن خطّ الشهيد أنّه تولّى ابنُ البرّاج قضاء طرابلس عشرين أو ثلاثين سنة " [5] .

النصّان يعرُضان لثلاثة أسئلةٍ ممّا يتصلُ بما نعالجه ، هي : مَن هوالذي ولاّه ؟ ، وضمناً : متى ؟ لأن الجوابَ على "مَن" يُساعدُ على الجواب على "متى" ،

---

(4) رياض العلماء : 5 / 145 .

(5) نفسه : 3 / 42 .

وثالثاً : كم من السنين ولي بالفعل هذا المنصب ؟

النصُّ الأوّلُ يُجيبُ على سؤالنا الأوّل المُفترَض ، وذلك بالتّنصيص على أنّ الذي ولاّه القضاء هو "**القاضي جلال المُلك**" علي بن محمد بن عمّار. ولنُسجّل هنا مُلاحظةً عارضةً على نصّ الشهيد ، هي قولُه : "**القاضي**" ، وصفاً لجلال المُلك ، الذي يتركنا نعتقد أنه لم يكُن يعرفُ أنّ جلالَ المُلْك لم يكُن أبداً قاضياً ، وإنما خلفَ أخاه في الإمارة ، دون أن تكونَ له سابقةٌ في القضاء كأخيه وسلفه في الإمارة ومؤسّسها عبد الله . على أنّ ما يهمّنا في هذا السّياق هو صفةُ القاضي للمؤسّس أمين الدولة عبد الله ، وسرايتها منه إلى ابنِ البرّاج .

والظاهرُ أن أمينَ الدولة عبد الله لم يصِل إلى الإمارةِ على "طرابلس" بما يُشبِه ما نُسمّيه اليومَ بالانقلاب . أي بإعلان إسقاطِ السُلطةِ الحاضرةِ أو الخروجِ عليها بضربةٍ واحدة . وإنما بدأ الأمرُ بما كان له من نفوذٍ واسعٍ ومكانةٍ عاليةٍ فيها ، بوصفه قاضيها . وتخلخُل سُلطان الفاطميين على "الشام" ، وإعلان "دمشق" و "صور" وأكثر"فلسطين" استقلالها عنهم [6]. بالإضافة إلى ظهور نوايا السلاجقة ومطامعهم في بسطِ سُلطانهم على كلّ "الشام" . لذلك كلّه فإنّ الرجلَ لم يجِد بُدّاً من التصرّف في الحكم على نحو الاستقلال . لأنّ الخيارَ الآخَر إنما هو إمّا الفوضى، وإمّا الخضوع للسلاجقة ، الذين لم يكونوا يُخفون عداءَهم للتشيّع وأهله . وكلا الخياريَن مُرٌّ . وهذا ، فيما نظنّ ، هو السبب في اختلاف المؤرّخين في تحديد تاريخ استقلاله . وإن يكُن من المُؤكّد أنه كان يتولّى كافة شؤون الحكم فيها سنة 462هـ/1069م على الأقلّ . والظاهرُ أيضاً أنه حتى بعد ذلك فإنه لم يتخلَّ عن لقب وعمل القاضي الفعلي ، وطبعاً لم يُعيّن قاضياً آخَر أثناءَ ما يزيدُ قليلاً على السنتين ، حتى وفاته في شهر رجب 464هـ/ شباط ، فبراير1072م . ولذلك فإن

---

(6) ذيل تاريخ دمشق / 97 و 112 .

سبط ابن الجوزي إذ ترجم له في كتابه (مرآة الزمان) قال : "**القاضي أمين الدولة ، الحاكم على طرابلس والمُتولّي عليها**" [7]. فزاوج بين اللقبيَن والصّفتيَن "**القاضي أمين الدولة**" على حدٍ سواء. بل يبدو أنّ ذلك كان بالرّضى والغبطة من الفاطميين أنفسهم . وفي ذلك يقولُ المقريزي :" **إنّ الدّولةَ [الفاطميّة]** حوّلتْ **الثّغرَ في ايدي بني عمّار على سبيل الولاية** " [8] . ولذلك كلّه فإنّنا لم نرَ أمينَ الدّولة يلتفتُ إلى ابن البرّاج فيجعله على القضاء ، مع أنه كان في المدينةِ منذ ربع قرنٍ تقريباً. ومع أنه كان يعرفُ جيّداً منزلته ، بوصفه هو نفسه فقيهاً ومُصنّفاً أيضاً [9] .

بسببِ هذه المُعطياتِ السّياسيّةِ المُعقّدةِ ، باتَ على منصبِ القضاء في المدينة الصّاعدة ، أن ينتظرَحتى السنة 464هـ / 1072م ، أو بُعيدها ، وهي سنةُ وصولِ أبي الحسن علي بن محمد بن عمّار ، الأشهرُ بلقب جلال المُلك ، إلى السُّلطة ، لتحظى بقاضٍ من وزنِ ابنِ البرّاج وحجمه . وهذا يُجيب على السؤاليَن الباقييَن . إذن ، فالحقيقةُ أنّ مُدّة ولايته على قضاء "طرابلس" لم تكن لا عشرين ولا ثلاثين سنة ، بل سبع عشرة سنة على الأكثر، أي ما بين إمارةِ جلال المُلك سنة 464هـ/1072م ، ووفاة ابن البرّاج سنة 481هـ / 1088م . والظاهرُ أنّ الشهيدَ اقتبسَ ماقاله على سنيّه في القضاء عن نقولاتٍ شفويّةٍ كانت ما تزالُ حيّةً مُتدَاوَلةً بين الناس في زمانه . ولم يكُن مُستنداً في نقْلها إلى سندٍ وثيق .

هذا ، ولقد عرفنا ممّا فات أنّ منصبَ القضاء كان في "طرابلس" آنذاك منصباً عالياً ، لا يقتصرُ على فضّ الخصومات وما إليها ، بل ذا أبعادٍ سياسيّةٍ ومعنويّة ، يُشبه منصبَ وزيرالعدْل اليوم . فمن هنا نفهمُ مرمى جلال المُلك من

---

(7) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، ط . أنقرة 1968م : 12 ق 2 / 138 .

(8) اتعاظ الحُنفا : 3 / 78 .

(9) ابن شدّاد : الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، ط . دمشق 1962 باعتناء سامي الدهّان :2 / 107 .

اختيارِ فقيهٍ في مكانةِ ابنِ البرّاج للمنصب . وهو الذي قيل فيه " **رمّ البلادَ أحسنَ رمٍّ وضبطَها خيرَ ضبط** " [10] . ومن عنايته بالجانب المعنويّ من ذلك أنه جدّدَ " دار العلم " بـ "طرابلس " ، كما سبق منّا القول ، بحيثُ باتتْ المركزَ العلميّ للمدينة . ومن هنا نعرفُ أنّ بادرته باتجاه ابن البرّاج أتتْ من ضمن نهجٍ وخطّةٍ نهضويّةٍ شاملةٍ بعيدة المَرمى . ولسنا بكبير حاجةٍ إلى التنويه بدور االقضاء العادل في بناء النهضة . وهكذا تأتي توليةُ ابن البرّاج على القضاء جزءً من "**رمّ البلاد وضبطها**" ، ومُكملاً لتجديدِ دار العلم ووضْعه على رأسها .

---

(10) مرآة الزمان : 12 ق 2 / 138 .

3 . ابنُ البرّاج مُصنّفاً .

—

تمهيد

بُغيتنا في هذا التمهيد أن نُلِمَّ إلماماً بمذهبِ صاحبِ السِّيرةِ في التصنيف . نعني بـ " مذهب " جَماعَ عددٍ من الإشكاليّات البحثيّة ، التي تطرحُ نفسها مهما يكُن المُصنّف ، وأيّاً يكُن منهجُه وطريقه ، وأبرزها : الموضوعاتُ التي طرقها فيما صنّف . العلاقةُ بين مُواصفاتِ العصر الفكريّةِ وبين المُصنّف ، بالمقدار الذي تعكسه مُصنّفاتُه . وفي مُقابل ذلك : خصوصيّته مُفكّراً ومُصنّفاً .

هذا ، وإننا إذ نضعُ نصبَ أعيننا هذا المطلبَ النّقديّ الشّامل ، الذي نراه ضروريّاً في سياقِ عِمارةِ سيرةٍ غير منقوصة للرجل . ، نعرفُ جيّداً أننا نخوضُ مُغامرةً . دون أن نملكُ كافةَ أدواتِ خوْضها . ذلك أنه ليس بين أيدينا سوى ثلاثةٍ من مُصنّفات ابن البرّاج ، هي (المُهذّب) و (جواهر الفقه) و (شرح جُمَل العلم والعمل). هي كلّ ما أستبقاه الزمان منها . أمّا الباقي ، وهو الأكثر عدداً كما سنعرف ، فكلُّ شيءٍ يدلُّ على أنه قد ضاع نهائيّاً . إلا أن يكونَ في مكتبةٍ ما في مكانٍ ما مخطوطةٌ ما لأحد مُصنّفاته الضائعة لم يلتفت إليها أحد . وهو احتمالٌ واهٍ ، ولكننا نُحبُّ ويُرضينا أن نتعلّقَ به .

ومع ذلك فإنّنا نرى في بقاء تلك الثلاثة من مُصنّفاته دون غيرها معياراً نقديّاً بمعنىً من المعاني . ذلك أنّ وصولَ نُسَخِ تلك الكُتب الثلاثة إلينا ، مُجتازةً كلّ مخاطرالطريق الطويل ، بما فيه الاحتلال الصليبي لـ "طرابلس" بعد عشرين سنة من وفاة صاحبها ، دليلٌ على توفّر نُسَخها ، وهذا بدوره دليلٌ على اهتمام أهل العلم بنسْخها وتداولها . أي أنه لولا أهمّيّتها والعناية المُتوالية بها لَما وصلتْ إلينا . فهذا يُعزّينا قليلاً عن فقدان ما فُقِد ، ويُقوّي من عزيمتنا في اعتمادها مَطّلاً

نستشرفُ منه مذهبَ صاحبها في التصنيف . على أنه يجبُ أن نُسارعَ إلى القول ، أن هذه الفذلكة لا تعني أنّ كُتبه الأخرى المفقودة ناقصةَ الأهميّة ، كلاّ ، بل إنّ ما عرضناه هو دليلُ إثبات . وككلّ دليل إثبات ، لا يصلحُ غيابُه في حالةٍ أُخرى أن يكون دليلَ نفي .

(1)

خلافاً لسلفه وبلديّهِ أبي الفتح الكراجكي ، الذي كان فيما صنّفَ موسوعيّاً بامتياز[1] ، فإنّ ابنَ البرّاج اقتصر فيما صنّف على موضوعٍ واحدٍ هو الفقه ، ليس غير . حتى أنه في شرحه على كتاب أُستاذه (جُمَل العلم والعمل) تنكّبَ القسمَ الكلاميّ منه ، فتولاّه الشيخُ الطوسيّ . ومن هنا فإننا لم نجِدْ كبيرَ معنىً لقولةِ ابن شهراشوب في الترجمة التي علّقها له :" **له كُتُبٌ في الأصول والفروع** " [2] . حيث " الأصول " تعني العقائدَ أو علمَ الكلام ، و " الفروعُ " الفقهَ . ولكنه فشِلَ في أن يُقدّمَ لنا فيما ساقه من أسماء كُتُبه أنموذجاً واحداً لكتابٍ " **في الأُصول** " . ثم أنّ مُعاصرَه الآخَرَ مُنتجبُ الدين ، بعد أن أحصى عدداً من كُتبه الفقهيّة ، قال : "**وكتابٌ في الكلام**" [3] . ففشِل هو الآخَر فيما فشِل به ابنُ شهراشوب من قبله . ولو انه كان يعرفُ اسماً لـ "**كتاب في الكلام**" لَما أخفاه . وقيلَ أنّ كتابه (المُعتمَد) هو في المذهب [4] ، أي أنه كلاميّ . ولكننا لم نجِد دليلاً على ذلك . بل الدليلُ قائمٌ على غيره . ذلك أنّ مُنتجب الدين ذكره ضمن الكُتُب الفقهيّة . ومن هنا نُقدّرما كتبه محمد علي مُدرّس ، في ختام ما علّقه على الترجمة لابن البرّاج ، فعقّبَ على ما

---

(1) انظر ثبتاً بمُصنفاته الكثيرة والمُتنوّعة الموضوعات في ختام كتابنا (الكراجكي . . . . .) .

(2) معالم العلماء / 80 .

(3) الفهرست / 74 .

(4) مقدّمة شانه جي لـ (شرح جُمل العلم والعمل) / 13 .

أحصاهُ من مُصنفاته بالقول ما ترجمته :" **وجميعُها في الفقه** " . وإن يكُنْ لم ينجُ من فخّ مُنتجب الدين ، فردّد عبارته الفارغة : " **وكتابٌ في الكلام** " [5] .

(2)

في سياقِ تحليلنا لهذا المَعْلَم الرئيس في مذهب ابنِ البرّاج في التصنيف ، علينا أن نتذكّرَ وأن نُذكّر أيضاً بأنّه عاش وعملَ في الفترةِ الانقلابيّة ما بين فقه الرّواية ، أي الفقه المنصوص ، وبين فقه الدّراية ، أي الفقه المُستنبَط من النصوص/الفتوى . وأنه زميلُ وتلميذُ الشيخ الطوسي الذي ثبّتَ المنهجَ الاستنباطي في الفقه . بعد أن اجتاز فترةِ النكسة التي يُمثّلها الفقيهان الحسنُ بن أبي عقيل العمّاني في كتابه (المُستسك بحبلِ آل الرسول) ، ومحمد بنُ أحمد بن الجُنيد في كتابه (تهذيبُ الشيعةِ لأحكام الشريعة) ، اللذيَن انتهتْ أعمالُهما إلى حمْلةٍ عليهما وعلى نهجهما ، وعزوفِ فقهاء الشيعة عن الاجتهاد ونبذه وتعطيله . ثم فترة المُراجعة والمُراوحة ، التي يُمثّلها الشيخُ المفيد في كُتُبه (تصحيح الاعتقاد) و (المُقنعة) و (التذكرة بأُصول الفقه). ثم جاء الشيخُ الطوسي ليُزاوجَ بين النهجيَن . مُتخذاً سبيلاً بين هذا وذاك . ولكنه أنبتَ زرعَه في حقل الاجتهاد بكتابيه (العُدّة في أُصول الفقه) و (المبسوط) ، وهذا أوّلُ موسوعةٍ فقهيّةٍ شيعيّةٍ شاملةٍ .

هكذا ، فعندما يُفرّغُ ابنُ البرّاج قلمَه للفقه ، فهو كأنما يُعلن انحيازَه المُطلق إلى جانب التيّارالجديد ، واندماجَهُ الكُلّيّ في تثبيته وتدعيمه ونشْره . وهكذا أيضاً ، يبدو تأثيرُ السنتيَن اللتيَن حضرَ فيهما حلقةَ الشيخِ أبلغَ فيه بكثير من السنوات الستّ التي تتلمذ فيها للسيّد المُرتضى . ذلك ، على الرّغم ممّا وصَلْنا إليه على صعيد العلاقة بين الاثنين في فصل "مع الشيخ الطوسي" أعلاه . حيثُ انتهينا إلى أنها كانت علاقةً مُلتبسةً بين التلمذة والزّمالة . بل إنني أعتقدُ أنّ الذي أهّبه

---

(5) محمد علي مُدرّس : ريحانة الأدب في تراجم المعروفين بالكنية واللقب ، ط . طهران 1359 هـ . ش : 7 / 309 .

للتقبُّل الكامل لنهج الطوسي على ذلك النحو ، هو أنّه كان في مرحلةِ نُضج تامٍ ، وثقةٍ عاليةٍ بالنفس . بحيث أنه كان في الوقت الذي يُناقشُ أستاذه في التفاصيل مُناقشةَ النّدِّ للنّدّ ، يُعلنُ عمليّاً انحيازَه إليه في التوجّهِ العامّ والمنهج .

ليس هذا فقط ، بل إننا نستطيعُ أن نرى وجهاً من وجوه التأثير البالغِ للشيخِ في انفتاحه ، أعني ابنَ البرّاج ، على النصّ السُّنّي . حيثُ يبدو مَعنيّاً بذكرِ فتاوى الفقهاء من غير الشيعة [6] . وهو هو النهجُ الذي سارعليه الشيخُ من قبل ، إذ ضمّن آراءَ أربابِ المذاهبِ في كتابيه (التبيان في تفسير القرآن) و (الخلاف) ، فضلاً عن اقتباسه عباراتهم وإيرادهِ للرواياتِ من طُرُقهم في كتابه الكبير (المبسوط) [7] . كما أنه ، أي تأثيرالطوسي ، يبدو لنا بنحوٍ أبيَن وأعمّ وأشْمَل في تصنيفه كتابه (المُهذّب) ، الذي ثنّى فيه على (المبسوط) للشيخ ، هذان الكتابان اللّذان يُمكن اعتبارهما طليعةَ الموسوعات الفقهيّة الشيعيّة ، التي تتابعتْ دون توقُّف فيما بعد .

ومع ذلك ، مع ذلك التأثير البالغ ، فإنّنا لا نُعدَمُ إماراتٍ على تجاوُزه المُستوى الذي يُمثّلهُ الطوسي . أبرزُ ما وقعنا عليه من ذلك فتواه بلزوم حمْل زكاة الفطرة ، إن لم يكُن الإمامُ (عليه السلام) ظاهراً ، إلى فقهاء الشيعة . قال :

> **" وإذا كان الإمامُ عليه السلام ظاهراً وجبَ على مَن وجبتْ عليه الفطرة حمْلها إلى مُستحقّها ، ولا يتولّى هو بنفسه . فإن لم يكُن الإمامُ عليه السلام ظاهراً كان عليه حملُها إلى فقهاء الشيعة "** [8] .

---

(6) انظر ، مثلاً : شرح جُمل العلم والعمل / 267 . 68 . والكتابُ حافلٌ بأمثلةٍ كثيرة .

(7) انظر مقدّمة محمد واعظ زاده الخراساني لرسائل الشيخ الطوسي ، ط . بيروت 1991 م / 22 .

(8) ابن البرّاج : المُهذّب : 1 / 175 . وقارن هذا بفتواه بجواز إخراجها بنفسه عند فقد الإمام والنائب عنه في : شرح جُمل العلم والعمل / 269 .

أظنُّ أنّ هذه الفتوى ، أَخُصُّ لزومَ حمْلِ الزكاة إلى الفقيه في غيابِ الإمام ، هي الأُولى والسّابقةُ من نوعها . إذ تمنحُ الفقيهَ هذا الموقع الذي يحصرُ براءةَ ذمةِ المُكلّف بالمرور عبْرَه شخصيّاً . فإذا عرفنا أن (المُهذّب) من أواخر ما كتب ، إن لم يكُن آخرَها على الإطلاق ، وعلى كلّ حال فإنه من المؤكّد أنه كتبه في "طرابلس" ، كما سنعرفُ من الفقرة المُخصّصة لمُراجعة الكتاب فيما سيأتي إن شاء الله . ، إذا عرفنا ذلك ، فهذا يطرحُ السؤالَ التالي :

هل هذه الفتوى هي ثمرةُ للمُمارسةِ العَمَلانيّة للفقيه العاملِ في موقعِ السُّلطة الفعليّة ؟

نقولُ في الجواب : نُرجّحُ ذلك . ولولا أنّ جانباً من السؤال ينظرُ إلى الحوافزالشّخصيّة الكامنةِ وراءَ العمل/الفتوى ، وهي، أعني الحوافز، من السّرائر ، لقُلنا : نعم ! قاطعةً دون تردُّد .

مُستندُنا في ذلك الاعتباراتُ والوقائعُ التالية :

. الأوّل : من المعلوم أنّ الفقيه يستنبطُ فتواه استنباطاً من مصادرالتشريع المعروفة ، أي من القرآن والسُّنّة والإجماع والعقل . هذا كلامٌ صحيحٌ إجمالاً دون ريب . ولكنّه يكتمُ حقيقةً أساسيّةً . إنه ينظرُ إلى مصادراستنباط الحُكم أو الفتوى . لكنّه لا يُعنى إطلاقاً بآليّةِ هذا الاستنباط . أي آليّة إعمال تلك المصادربحيث تنتهي إلى الحُكم أو الفتوى. هذه الآليّة تبدأُ من نُقطة طرْح المُشكلة التي هي موضوع الحُكم . وهذه لا يجب أن تكون دائماً في هذا المصدر أو ذاك من مصادر الاستنباط . بل ربما تكونُ في الظروف السياسيّة أو الاجتماعيّة أو المعاشيّة . . . . . الخ. ، التي تتصلُ بالفقيه أو يَمُرُّ بها الناس ، الذين هم موضع عناية الفقيه وهو يُقنّن . وغنيٌّ عن البيان أنّ "طرابلس" الشيعيّة شعباً وسُلطةً هي غيرُ "بغداد" ذات الوجوه . وأنّ موقعَ ابن البرّاج فيها بوصفه الفقيه الأبرز والقاضي العامّ في بلده ، هو تماماً غير موقعه تلميذاً ودارساً في "بغداد" .

. الثاني : إنّ ابنَ البرّاج هو أ وّلُ فقيهٍ شيعيٍّ إماميٍّ يشغلُ منصبَ القضاء رسميّاً ، في ظلِّ نظامٍ سياسيٍّ مُتماهٍ معه ، بحيث يُعطيه أن يعملَ بكامل الحُريّة ، دون أن يخشى مؤاخَذةً أو نيلاً بسُوء . أي أنه أوّلُ فقيهٍ يُتاحُ له ، بحُكم تجربته الشخصيّة ، أن يخرجَ بفقهه من إطار البحث النظري إلى مُستوى الإعمال الفعلي الحُرّ . ممّا يُتيحُ له التماسّ المُباشر مع آليّات الاستنباط القائمة بالفعل . أي أن يأخذَ بعين الاعتبار الظّرفَ السياسي . الاجتماعي . . . . الخ. ومُقتضياته .

. الثالث : إن فتواه هذه ، التي عرفنا أنه أصدرها في "طرابلس" بعد أن شغلَ منصبَ القضاء العامِّ فيها عدّة سنوات ، هي غير فتواه في كتابه (شرحُ جُمل العلم والعمل) ، الذي نعرفُ أنه كتبه بعد خروجه من "بغداد" ، ولكن قبل (المُهذّب) بالتأكيد . هنا أفتى بجواز إخراج المُكلّف زكاةَ الفطرة بنفسه عند فقدِ الإمام والنائبِ [الخاصّ ، طبعاً] عنه ، كما ذكرنا في الحاشية السابقة . ممّا يسمحُ لنا أن نُخمّنَ أنّ ما وراءَ الاختلاف ليس شيئاً ممّا يتصلُ بسببٍ فقاهتيّ ، بل أمرُ ممّا هو وراءَ الفقه ومصادراستنباطه . وعلى كلّ حال فإنه لم يعرُض لذكر مُستنَده في الحاليَن .

. الرابع : نحن نعرفُ أنّ الخطوةَ التاليةَ، باتجاه منْحِ الفقيه الشيعيّ حضوراً وافياً في قيادة مُجتمعه ، قد حصلتْ بعد ثلاثة قرون على يد الشهيد الأوّل محمد بن مكي الجزّيني (ق:786هـ/1384م) . وذلك في سياق الحِراك الثقافيّ . الاجتماعي . السّياسي الذي نظّمه وقاده ردّاً على الاجتياح التركماني . المملوكي للشيعة في المنطقة [9]. بل الحقيقة أنّ كلّ تاريخ هذه المسألة الإشكاليّة ، في كافة أطوارها حتى عصرنا الحاضر ، مُرتبطٌ بالتعامُل مع ظرفٍ اجتماعيّ . سياسيٍّ مُغيِّر، أكثر ممّا هو مُتأثّر بمذهبٍ نظريّ . من هنا لا نرى عجباً في أن يبدأ على يد ابن البرّاج في الظرف وللسبب الذي ذهبنا إليه .

---

(9) لتفصيل هذا الإجمال ، كتابنا : الشهيد الأوّل عصره سيرته أعماله وما مكث منها ، المنشور في مقدمة(موسوعة الشهيد الأول) ، مصدرٌ مذكور سابقاً .

(3)

نختمُ هذا التمهيد بمُراجعةِ قولٍ منسوبٍ إلى الفقيه سديد الدين محمود بن علي الحِمْصي الرّازي (ت. بُعَيد :583هـ/1187م) ، نقله عنه تلميذُه الأميرُ ورّام بن نصر الحلّي ، الشهير بابن أبي فِراس (ت:605هـ /1208م) ، لعلاقته ببطلِ هذه السّيرة . قال فيه أنه "**لم يبقَ مُفتٍ للإماميّة على التحقيق بل كلُّهم حاكٍ**" . وهذا حُكمٌ كأنما يُرادُ منه أن يعكسَ السُّلطانَ الطاغيَ لآراء ومقولاتِ ومُصنّفاتِ الشيخ الطوسي على العقول من بعده ، بحيثُ غدتْ مُحاكاتُها مسلكاً عامّاً لدى الفقهاء حتى زمان سديد الدين .

هذا الكلام صحيحٌ إجمالاً ولا ريب ، وإن أُسيء تفسيره . حيثُ جرى تصويرُه وكأنه تأثيرٌ شخصيٌ للشيخ الطوسي . ومن ذلك ما قاله أُستاذُنا السيّد محمد تقي الحكيم وهو يشرحُ ذلك ما نصُّه :

> **" كاد أن ينسدَّ بابُ الاجتهاد عن الشيعة الإماميّة بالخصوص في القرن الخامس الهجري بسبب عِظَمِ مكانة الشيخ الطوسي وقوّة شخصيّته التي صهرتْ تلامذته في واقعها وأنسَتْهُم أو كادت شخصيّاتهم العلميّة . فما كان أحدٌ منهم ليجرؤ على التفكير في صحّة رأيٍ لأستاذه الطوسي أو مُناقشته"** [10] .

ما نراه بل ونذهبُ إليه ، أنّ المسألة هنا ليست عِظَمَ مكانة أو قوّةَ شخصيّة ولا تهيُّبَ خلافٍ ، ولا أي شيءٍ من هذا القبيل . كلُّ ما في الأمر أنّ الشيخَ جاء بنهجٍ طريفٍ ، مُختلفٍ عمّا كان عليه العملُ من قبله ، زاوجَ فيه بين فقه النقل وفقه الاستنباط . وبذلك نجحَ في حلِّ مُشكلاتٍ هائلة ، كانت تعترضُ طريقَ أيِّ تقدّمٍ في مستوى البحث الفقهيّ الإماميّ . في الوقت الذي كانت فيه بعضُ المذاهب

---

(10) الحكيم : الأصول العامّة للفقه المُقارَن ، ط . مؤسسة آل البيت (ع) للطباعة والنشر 1979م / 600 .

الإسلاميّة الأخرى قد قطعتْ شوطاً بعيداً في هذا المَجال . فكان من الضروري أنّ تتلبّثَ الدوائرُالعلميّةُ الإماميّةُ في "بغداد" ثم في "النجف" و "الحلّة" لتستوعبَ المُتغيرَ المنهجيّ الأساسي الجديد ، وتهضُمه وتتمثّلهُ في سلوكها الفكريّ اليومي . قبل أن تبدأ بنقده ، بل وتجاوُزه ، كما حصل بعد قليل في "الحلّة" . وهذه سُنّةٌ من سُنن الحياة العقليّة ، يُمكن لمَن يهمّهُ الأمرُ أن يجدَ عليها كثيرَ أمثال .

ما يهمّنا بعدَ هذا التحليل أنّ ابنَ البرّاج استثناءٌ بارزٌ منها ، ليس لأنه خارجَها ، بل لأنه كان منها في القلب . وهو الذي رافق ولادتها . والقارئُ الحصيفُ الذي رافقنا في هذا البحث ، لن يجدَ أدنى صعوبةٍ في تذكُّرفذلكةِ هذا الحُكم . فقد رأيناه مُندمجاً في النهج الجديد بكتابه (المُهذّب) ، وبالاقتراحات الكثيرة على الشيخ بموضوعات للتصنيف تُعزّزُه ، استجاب لها الشيخُ بكامل الغبطة . ولكنه ، أعني ابنَ البرّاج ، في الوقت نفسه ، لم يتردّدْ في مُناقشة بطل هذه المرحلة في بعض اجتهاداته الفقهيّة . وهذا دليلٌ ضمنيّ على وَحدة المنهج عند الاثنيَن ، ومنه حقُّ الاختلاف .

(4)

أظنُّ أننا بهذا التمهيد للدخولِ إلى التعريفِ بمُصنّفاتِ ابنِ البرّاج مُصنَّفاً مُصنَّفاً ، قد استوفينا ما وعدنا به القارئ في مطلعِ هذا الفصل ، من وصفِ عناصر مذهبه في التصنيف . وباتَ من المُمكنِ أن ندخلَ هذا الباب مُزوّدين بفكرةٍ طيّبةٍ عن منازعه فيها . ونبدأُ بكُتبه الثلاثة الباقيات .

—

مُصنّفاتُـه

1 . **شرحُ جُمَل العلمِ والعمل** . وهو أحدُ المُصنّفات الثلاثة الباقيات له . شرحَ فيه الجُزءَ الفقهيّ (العمل) من كتاب أُستاذه السيّد المُرتضى . وتولّى تلميذُه الآخَرُ الشيخُ الطوسيّ شرحَ الجُزءِ الكلاميّ (العلم) منه .

والأصلُ متنٌ وجيزٌ . كتبه مُصنّفه بأمرٍ من أستاذه الشيخ المُفيد ، ليكونَ وسيلةً إلى الحدّ الأدنى ممّا يجب على المؤمن العارف معرفتَه والعملَ به . وهكذا تكونُ قد التقتْ في الكتاب وشرحِه هذا رغباتُ ثلاثة أجيالٍ من الكبارالمؤسّسين. وقد التزمَ الشّارحُ فيه نقلَ فتوى صاحب الأصل ، تحت عنوان " قال الشريفُ الأجلُّ المُرتضى رضي الله عنه " أو " صاحبُ الكتاب" أو أيِّ عبارةٍ مُشابهة . ثم يشرحُ قولَه مع أو بدون إيرادِ الدّليل ، الذي غالباً ما يكونُ الإجماعَ والاحتياطَ أو الإجماعَ فقط . أو يناقشه إن كان يرى خلافَه . كلُّ ذلك مع المُحافظة على طابع الكتاب ، المَبني على الإيجاز. لم يخرجْ على هذا النهج إلا في مسألةٍ واحدةٍ توسّعَ فيها كما لم يتوسّعْ في غيرها . هي مسألة الرؤية بوصفها دليلاً شرعيّاً حصْراً في إثبات الأشهر القمريّة [1]. في مقابل الطريقة الحسابيّة (العَدَد) . وهذا مُؤشّرٌ إلى أنّ الجدال كان لا يزالُ مُحتدماً بين الفقهاء على هذه المسألة ، منذ أن نصرَ الشيخُ المُفيدُ القولَ بالرؤية ، وتبعه عامّةُ تلاميذه . كما أنه كثيراً ما يذكرُ آراءَ الفقهاء من غير الإماميّة في المسألة التي يُبيّنُ حُكمها .

---

(1) شرحُ جُمَل العلم والعمل / 82.166 .

من المُرجّح أن ابنَ البرّاج صنّفَ هذا الشرحَ بعد أن غادر "بغداد" . ومن المؤكّد أنه بعد وفاة أُستاذه السّيّد المُرتضى . بشهادةِ تعقيبه غالباً على ذكره في الكتاب بقوله : " رضي الله عنه " . ومن المؤكّد أيضاً أنه مَسبوقٌ بثلاثةٍ من مُصنّفاته . هي : (الذخيرة) و (المُلخّص) و (المصباح) ، بشهادة ذكر هذه الثلاثة في خاتمة الكتاب [2] . فمن هذه الإمارات رجّحنا أنه من مُصنّفات فترة "طرابلس" . ومع ذلك فإنّنا نُلاحظُ أنه لم يُصدّره بمثل ما صدّرَ به كتابيه الآخَرّين ، من ذكرِ مَن خدمه بكتابه . ممّا يصلحُ أن يكون مُشيراً إلى أنه كان ثمرة تفاهمٍ بينه وبين الشيخ الطوسي .

طُبع الكتاب في مطبعة جامعة "مشهد" سنة 1352هـ . ش / 1974م ، طبعةً مُحقّقةً على نُسختيَن خطّيتيَن ، باعتناء أستاذ كليّة الإلهيّات والمعارف الإسلاميّة في الجامعة كاظم مُدير شانه جي .

2 . جواهرُ الفقه . هكذا سمّاه مُصنّفه في المقدّمة [3] . ويُسمّيه ابن شهرآشوب (الجواهر) [4] وكذا مُنتجَبُ الدين [5] . وهو اختصارٌ مألوف . ولكنه أيضاً ذو مغزى ، يحسُن بنا الوقوفُ عنده . ذلك أنه عندما يذكرهُ المؤلّفان المُعاصران بهذا النّحو، فهذا دليلٌ عند العارف على أن الكتابَ كان في حياةِ مؤلّفه أو بُعيدها كتاباً معروفاً مُتدَاوَلاً ، ومن هنا يجري اختصارُ اسمه على الألسُن .

ممّا قدّمَ به مؤلفه لكتابه الكلامُ التالي :

---

(2) نفسه / 269 . 70 .

(3) ابن البرّاج : جواهر الفقه ، ط . قم مؤسسةُ النشر الإسلامي التابعة لجماعة المُدرّسين في "قم" 1411هـ ، باعتناء إبراهيم بهادري / 4 .

(4) معالم العلماء / 80 .

(5) الفهرست / 74 .

" أمّا بعد . فإنه لمّا كانت أيادي حضرات القُضاة الأغريّة [كذا ! إقرأ : الأميريّة] الجلاليّة الفخريّة، ثبّتُ اللهُ وطأها ومجدها ، وأدام قُدرتها وسَعدَها علينا مُمتدّةَ الأظلال ، مُسبَلةَ الأذيال ، شاملةَ الاحسان والإنعام ، غامرةً بكلّ فضلٍ وإكرام، وجبَ في حقّ ذلك الشُكرُ لها علينا، والخدمةُ منّا لها . وأمّا الشُكرُ ، وإن كان هو الاعترافُ بالنعمةِ مع ضربٍ من التعظيم ، فقد عرفهُ منّا كلُّ إنسانٍ عرفناه وعاقلٍ خالطناه. وأمّا الخدمةُ لها فجاريةٌ في العلمِ مجرى ما تقدّمَ من العلمِ بالشُكر . غير أنّ الخِدَمَ لمّا كانت تتفاضلُ ، وكان أفضلُ ما يخدمُ به مثلي مثلَها ما يرجعُ إلى الدّيانات ويتعلّقُ بالمُتعَبّدات ، ويعودُ نفعُهُ على ذوي الألباب ، ويبقى ذكرُهُ في الأعقاب . ، رأيتُ خدمَتَها ببعض ما يتعلّقُ بذلك . فوضعتُ هذا الكتاب ، وسمّيتُهُ بكتاب جواهر الفقه . لأنني اعتمدتُ فيه ذكرَ المسائل المُستحسَنَة ، والأجوبةَ المُوجَزَةَ المُنتخَبَة " [6] .

هوذا نحن أمامَ نصٍّ مُعزّزٍ عرض فيه صاحبُهُ لأمرَين . أوّلُهما حافزه لوضع الكتاب . وثانيهما منهجُهُ فيه .

أمّا الحافزُ فهو خدمةُ الأميرَين جلال المُلك أبو الحسن علي ابن عمّار (ت:492هـ/1098م) ، ثاني أُمراء دولة بني عمّار في "طرابلس" ، وأطولُهم حُكماً وأبعدُهم ذكرا . وفخر المُلك أبو علي الحسين ابن عمّار، الذي ضربَ المثلَ الأعلى في الجهاد والصّبر ومُصابرة الغُزاة الصليبيين ، في ظلّ صمتِ وتخاذُل الحُكّام المسلمين . ولم تسقط المدينة بأيديهم إلا أثناء غيابه عنها . يومَ اضطُرّ للسّفر إلى

---

(6) جواهرُ الفقه / 3 . 4 .

" بغداد" ، مُستنجداً بالخليفة . وأقامَ في قرية "الزّبداني" من أعمال "دمشق" ، ثم في "مصر" حيث توفي سنة 517هـ/1123م . وغنيٌّ عن البيان ، بعد هذا ، أنّ المؤلّف كتبَ هذا الكتاب في "طرابلس" .

وأمّا المنهجُ ، فهو مَبنيٌّ على السؤال فالجواب ، تحت مُختلَف العناوين. من مثل " بابٌ في مسائل ممّا يتعلّقُ بالطهارة " ، " بابُ مسائل تتعلّقُ بالبيوع " وهكذا . والظاهر أنّ هذا ما أشار إليه المؤلّفُ حيث قال :" اعتمدتُ فيه ذكرَ المسائل المُستحسَنَة والأجوبةَ المُوجَزَة المُنتخَبة ". أي أنه لم يقصد الاستيفاءَ . أمّا وجه الاستحسان بين مسائل فقهيّة ما من وجهٍ مفهومٍ لاستحسانِ بعضِها على بعض، فالذي يبدو لنا أنها أسئلةٌ قد وُجّهتْ إليه بالفعل ، أو ممّا كان قد عالجهُ في عمله القضائيّ. يؤيّدُ ذلك ، فيما يخُصُّ الأخير ، سِعةُ الأبوابِ ذات الصّفةِ القضائيّة وتنوّعُ أسئلتها :"بابُ مسائل تتعلّقُ بالوكالات " ، " بابُ مسائل تتعلّقُ بالإقرار "، " بابُ مسائل تتعلّقُ بالغصْب"[7]، إلى غير ذلك . ويبلغُ مجموعُ الأسئلة في الكتاب ثماني مائة وتسعٍ وثلاثين مسألة .

والكتاب من مؤلفات فترة "طرابلس" أيضاً. وهذا واضحٌ ممّا اقتبسناه أعلاه . وهو سابقٌ على تصنيف كتابه (المُهذّب) ، بشهادة قوله في هذا :" **وقد أشرنا إلى الوجهِ القويّ لذلك في كتابنا جواهر الفقه** " [8] .

طُبع الكتابُ سنة 1411هـ / 1990م ، مؤسّسةُ النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المُدرّسين في "قم"، باعتناء ابراهيم بهادري ، مُحقّقاً على نسختيَن خطّيّتيَن . ولكن فاته أن يُثبتَ راموز النسختيَن ، كما تفتضي أُصولُ النّشر العلميّ .

3 ـ المُهذّب : أوسعُ الكُتُبِ الثلاثة التي وصلتنا مادةً . استوفى فيه كُتُبَ

---

(7) جواهر الفقه / 77 ـ 84 و 85 ـ 100 و 107 ـ 118 ، على التوالي .

(8) المُهذّب : 1 / 23 .

الفقه ، من كتاب الطهارة إلى كتاب القضاء . وجميعها واحدٌ وأربعون باباً .

قدّمَ المؤلفُ لكتابه بمُقدّمةٍ قصيرةٍ ، نقتبسُ منها ما يلي ، لِلسببِ الذي سنُبيّنه في التعقيب عليه ، قال :

" **أمّا بعد . فلو ساعدتني الأقدار ، وأطاعني الإمكانُ والاختيار ، لكنتُ مُستسعِداً بالزيارةِ والإيلام [كذا!] والقبول والالهام [كذا!] بالحضرة القضويّة النقيّة الخالصيّة ، أدام اللهُ أيامَها ما دام الجديدان ، وصرفَ عنها صرف الحَدَثان . إذ كانت عضُداً للمؤمنين ، وركناً من أركان الدين ، ومقرّاً للرئاسة والعدل ، ومحلاًّ للنفاسة والفضل. ولمّا كنتُ غير قادرٍ** على ما قدّمتُه ، **ولا مُتمكّن ممّا ذكرتُه ، رأيتُ وضْعَ كتابٍ رتّبتُه ممّا يشتملُ على ابواب . . . . الخ.** " [9] .

هذا نصٌّ مُحيّرحقّاً . فمن هي هذه الجهة /الشخص الذي خدمه بكتابه ، وتجتمعُ فيه تلك الأوصاف: أنه قاضٍ "**الحضرة القضويّة** " . أنه بعيدٌ عن "طرابلس" ، حيثُ كان يُقيمُ ابنُ البرّاج آنذاك ولا ريب ، بحيثُ يحتاجُ إلى مُساعدة الأقدار ، ويصحُّ منه الاعتذارُ عن زيارته . أنه كان "**عضُداً للمؤمنين ورُكناً من أركان الدين** " . وأنّه كان " **مَقرّاً للرئاسة والعدل** " .

بالبحثِ والتنقيبِ لم نجِدْ غير احتمالٍ وحيد ، هو أنّ المُخاطَبَ بهذا هو ابنُ أبي عقيل ، قاضي " صور" ورئيسها . ذكره ناصر خسرو ، فوصفه بأنه " **رجلٌ سُنّيّ** " وأنه "**رجلٌ طيّبٌ** " [10]. ففيه تجتمعُ كافة الصفات : قاضٍ ورئيسٌ ، مقرّه مدينة بعيدة عن "طرابلس" (تبعُدُ عن "صور" مائةً وثمانين كيلو متراً)، وكان على علاقةٍ طيّبةٍ بأهل المدينة من الشيعة . ومن هنا استحقّ عنده وصفَ " **عضُد المؤمنين** "

---

(9) المُهذّب : 1 / 17 ـ 18 .

(10) سفر نامه / 50 .

و " **مَقرّاً للرئاسةِ والعدل** " .

هذا ، وبالعودةِ إلى مُراجعة الكتاب لاحظنا أنه لم يعقُد فيه باباً للوكالة ، خلافاً لِما في كتابه (جواهر الفقه) [11]. ولم يبدُ لنا وجهٌ في ذلك . ولعلّهُ آثرَ توزيعه على الأبواب كلٌّ بما يناسبه . ومن ذلك أنه أفتى بعدم صحّة توكيل الحاضر بالطلاق [12] ، بل أن يُباشِرَه المُطلّقُ بنفسه . وهي خلاف عمومات الباب . ولعلّها نتيجة تجاربه في العمل القضائي ، بغيابِ موثّقي العقود وما إليها .

ثم أنه ذيّلَ كتابَ الحجّ بـ (كتاب الزّيارات) . وهو بابٌ مُختصَرٌ بيّن فيه كيفيّةَ زيارة النبي (صلوات الله عليه وآله) والأئمة والشهداء (عليهم السلام) [13] . وذلك تقليدٌ ظلّ معمولاً به في كُتُب الفقه إلى وقتٍ غير بعيد نسبيّاً . وقد نُسِخَ اليوم .

والظاهرُ أنّ هذا الكتاب هو آخرُ مُصنّفاته . فهو لم يذكرهُ في أيٍّ من مُصنّفاته الأخرى . في حين أتى فيه على ذكرِ كتابه (الكامل) [14] . كما ذكر كُتُبَه (الذخيرة) و (المُلخّص) و (المِصباح) في (شرح جُمل العلم والعمل) ولم يذكر(المُهذّب) [15] . وعلى كلّ حال ، فإنه كان مشغولاً بتصنيف الجزء الأوّل منه سنة سبعٍ وستين وأربعمائة [16] . وقد اشتبه الأمرُ على كاتب أقدم نُسخ الكتاب المعروفة ، فسجّل في ختام النسخة ما يُفهمُ منه أن هذا هو تاريخ فراغ المؤلف [17] .

---

(11) جواهر الفقه / 77 . 82 .

(12) المُهذّب : 2 / 277 .

(13) نفسه : 1 / 274 . 291 .

(14) المُهذّب : 1 / 392 و 2 / 266 .

(15) شرح جُمل العلم والعمل / 270 .

(16) نصّ على ذلك في الكتاب : 1 / 376 .

(17) المُهذّب : 2 / 600 .

وتابعه على ذلك شيخُنا الطهراني [18] . وهذا كلّه كلامٌ يفتقرُ إلى الدّقّة .

طُبع الكتابُ باعتناء مؤسّسة النّشر الإسلامي لجماعة المُدرّسين في "قمّ" سنة 1406هـ/ 1985م ، طبعةً مُحقّقةً على ثماني نُسَخ . ولكن فاتهم ، هُم أيضاً ، أن يُثبتوا راموزَ النُّسَخ التي اعتمدوها في التحقيق . وإن وصفوها وصفاً جيّداً ، مع ذكر مكانَ حفظِ كلٍّ منها .

4 . الكامل : أتى على ذكره مُصنّفه هذا مرّتيَن في كتابه (المُهذّب) ، كما ذكرنا قبلَ قليل . ويُفهَم من ذكره هنا وعدم ذكره بين كُتُبه الفقهيّة في ختام كتابه (شرح جُمل العلم) ، أنّ تاريخ تصنيفه يأتي بعد (الذّخيرة) و (المصباح) و(المُلخّص) وقبلَ (المُهذّب) .

ذكره شيخنا الطهراني بعنوان (الكامل في الفقه) . وقال أنّ نُسخةً منه كانت عند الشيخ محمد تقي المجلسي (ت:1070 هـ/1659م) ، وأنّ ابنه ينقلُ عنه في كتابه (بحار الأنوار) [19] . فهذا يدُلُّ على أنّ نُسخة الكتاب كانت موجودةً حتى أوائل القرن 12هـ/ 18م . ثم فُقِدتْ من بعد .

5 . الذّخيرة : ذكره مُصنّفه في خاتمة كتابه (شرح جُمل العلم والعمل) . قال:" **فمن أرادَ التّزَيُّدَ في علم أصول الدين، والغوصَ إلى أعماقه ، وتغلغُلَ شِعابه ، فعليه بكتابنا المعروف بالذّخيرة** " [20] . فذكْرُه هناك ، في سياقِ " **التزيُّد** " ، يتركنا نعتقدُ أنّه كتابٌ في الفقه أوسعُ . ولكن وصفه إيّاه بأنه " **في علم أُصول الدين** " غير واضح . وأقربُ ما يَرِدُ بالبال من معناه علم الكلام . ولكنّ هذا معنى بعيدٌ جدّاً . فكيف يصحُّ إغراءُ امرىءٍ يبتغي التّزيُّدَ من علمٍ بالرّجوعِ إلى كتابٍ في علمٍ غيره ؟! فالظاهرأنّ

---

(18) طبقات أعلام الشيعة (الأنوار الساطعة) / 113 .

(19) الذريعة إلى تصانيف الشيعة ، ط . بيروت ، دار الأضواء ، لات : 17 / 257 .

(20) شرح جُمل العلم والعمل / 270 .

الكتاب هو في الفقه . وإنما اختار مُصنّفُه هذه العبارة في وصفه لأنه استدلالي . بشهادةِ قوله " **الغوصَ إلى أعماقه ، وتغلغلَ شِعابه** " .

هذا، وقد فات شيخَنا الطهراني ذكرَهُ في (الذريعة) ، مع أنّ ذكْره من شرْط كتابه .

6 . المِصباح . ذكره مُصنّفهُ أيضاً في (شرح جُمل العلم والعمل) . قال : " **ومَن أراد التّفريعَ ، واستيفاءَ مسائل الشّرع كلّه وأبوابِه ، فعليه بكتابنا المعروف بالمصباح** " [21] . فيظهرُ من ذلك أنه كتابٌ مُوسَّعٌ في الفقه ، دون إيراد الدليل .

وقد فات ذكرهُ شيخنا الطهراني أيضاً .

7 . المُلخّص . هذا الكتاب الثالث والأخير ممّا ذكره في خاتمة (شرح جُمَل العلم والعمل) . قال مُعقّباً على عبارته التي اقتبسناها في الفقرة المُخصّصَة لكتابه (الذخيرة) أعلاه :" . . . . **فإن آثرَ الزّيادةَ والاستقصاء فعليه بكتابنا المُلخّص** " . والظاهر أنّ المقصود هنا بـ " **الزّيادة** " أي على (شرح جُمل العلم والعمل) وليس على (الذّخيرة) . وعلى هذا فيكونُ كتاباً وسطاً بين الأوّل وبين (المِصباح) . ومن هنا سمّاه بـ (المُلخّص) . ولم يذكره الطهرانيّ أيضاً .

8 . روضةُ النّفس في أحكام العبادات الخَمْس . ذكره ابن شهرآشوب بهذا العنوان [22] . ومُنتجَبُ الدين بعنوان (الرّوضة) [23] . وهو اختصارٌ مألوف .

9 . عِمادُ المُحتاج في مناسك الحاجّ . ذكرهُ مُنتجَبُ الدين بهذا العنوان [24] . ولم يذكره ابن شهرآشوب .

---

(21) شرح جُمل العلم والعمل / 270 .

(22) معالم العلماء / 80 .

(23) الفهرست / 74 .

(24) نفسه .

10 . **المُعتَمَد** . انفردَ بذكره مُنتجَبُ الدين[25].

11 . **المُقرّب** . ذُكر في المصدريَن بهذا العنوان .

12 . **المعالم** . انفرد بذكره ابنُ شهرآشوب .

13 . **المنهاج** . أيضاً .

14. **التعريف** . أيضاً .

15 . **المُوجز في الفقه** . انفرد بذكره مُنتجبُ الدين . والظاهر أن هذه العناوين الستة مُختصَرَةٌ عن العناوين الأصليّة .

16 . **كتابٌ في الكلام** . أيضاً . ولكنّ ابن شهرآشوب يقول :" **له كُتُبٌ في الأصول والفروع** "[26] . فإن كان قصده بـ " **الأصول** " علم الكلام ، فيكون قولُه إشارةً إلى الكتاب نفسه . هذا مع الأخذ بعين الاعتبار ارتيابنا فيما مهّدنا به لهذا الفصل بأن يكون قد كتبَ في غير الفقه .

---

(25) أيضاً .

(26) معالم العلماء / 80 .

ختـــــــــام

آمنتُ منذ زمنٍ بعيد بأن كتابةَ السّيرة ليست فقط أجملَ فنون الكتابة التاريخيّة ، وليست فقط أقربَها إلى البراءةِ والصّدق ، بل هي أيضاً أحراها بأن يفتح أمامنا مغاليقَ التاريخ الرّسمي . وأن يقودَنا ويأخذَ بيدنا في مفاوزه . بحيثُ قد تُبيّنُ لنا ما عجز عن بيانه ، بحُكم منهجيّته المأزومة والانتقائيّة والنّفعيّة . فلا يرى إلا السُّلطةَ وسلوكَها . ولا يعملُ إلا على تعميم حضورها ، وتلميع صورتها . مُوجّهاً عينه العوراء إلى كل سلوكٍ إنسانيّ ما عداها . وفي هذا السّياق يضيعُ تاريخٌ إنسانيٌّ كثير. وهو هو التاريخ لو كانوا يعلمون . وما هذه الدّراسة ، عند مَنْ يُحسنُ قراءتها ، إلا أُنموذجٌ ساطعٌ على الإمكانات المذخورة في غير مصادر التاريخ الرّسمي ، في استنزال التاريخ من أبراجه السُّلطويّة إلى رحابه الإنسانيّة .

(1)

المغزى الأساسي الذي عملتْ هذه الدّراسة على بيانه ، هو أنّ المُثقّفَ المُنتمي يمكنُ أن يكونَ عاملَ تغييرٍ وتقدُّم ، كما يُمكن أن يعكُسَ التأثيرَ الإحباطيّ لبعض العوامل التاريخيّة . أعني بهذا ، فيما يخصُّ الوضعَ الذي واجهه ابنُ البرّاج ، الحالةَ الفصاميّة التي انتهتْ إليها ثقافةُ أوسع الجماهير، في المنطقة التي عاش ونشأ وعملَ فيها ، والتي كان عِمادها التشيُّع . وذلك إذ انفصلتْ عن مصادرها في "العراق" . وعجزتْ ، حتى سلفه الرّائدِ الكراجكي ، عن أن تُنجبَ المُثقّفَ الذي يتولّى التّسامي بها وتنظيرها وتوظيفها . فكان من المحتوم أن تذبُل وتضمحلّ . بحيث لم يبقَ منها حيّاً مع الوقت إلا بعض عناوينها ، وفي رأسها ولاءٌ فارغٌ من أي مضمون عمليّ لأهل البيت (عليهم السلام) . أضعفُ وأرقُّ من أن يُترجمَ نفسه في منظومةٍ فكريةٍ / كلاميّة ، وفي مُوجّهٍ وناظمٍ سلوكيّ / الفقه .

(2)

في الطريق إلى هذا المغزى ، الذي وصفناه بحقّ بأنه "أساسي" ، كان علينا أن نعبُرَ عدّةَ محطّاتٍ . في رأسها الإطار التاريخيّ للبحث ، وصفاً له وتفسيراً . وصفاً لحركة التاريخ ومُتغيّراته في الماضي التي تآزرتْ على بناء الإطار . وتفسيراً لمعالمه القائمة بالفعل في الاجتماع والسياسة والثقافة . لِما هنالك من علاقةٍ صارمةٍ بين الإنسان ، أيّ إنسان ، وبين بيئته بكافّةِ عناصرها ومُكوّناتها . بحيثُ لا يُمكن أن نُقيم سيرته إلا على اساسٍ من استيعابها . ذلك الإطار هو ما كان موضوع الفصل الأوّل ، تحت عنوان "طرابلس حتى زمان ابن البرّاج" . والحقيقةُ التي ألمحنا إليها هناك ، أنّ هذا الفصل كان خوضاً في الجانب غيرالمرأي من التاريخ الرّسمي . وقد وصلنا فيه إلى نتائج طريفة ، هي إمّا ممّا أغمض عنها عينه ، وإمّا ممّا تختلفُ عمّا ذهب وانتهى إليه . من ذلك تفسير نهوض وهُويّة "طرابلس" . وإثبات الأصل العربي الصّميم لأُمرائها بني عمّار، خلافاً لكلّ ما تقوله المصادرُ قديمةً وحديثةً في هذا الشأن .

ثم كان من بعدُ التعريفُ ببطلِ هذه السّيرة . وذلك في الفصل الثاني تحت عنوان "في السّيرة" . حيث حاولنا مُعالجة الإشكاليّات التي تطرحُها سيرتُه الأوّليّة . وهي هي ما تطرحه سيرةُ أيّ إنسان . ووصلنا في بعضها إلى نتائج مُرجّحة ، وذلك لفقر المصادر المُدقع في هذا الشأن . ولكن من شبه المُؤكّد أنّ صاحبَ السّيرة طرابلسيٌّ الأصل والمولد والنشأة ، كما كان طرابلسي الوطن والمَدفن .

في الفصل الثالث "مع الشيخ الطوسي" عملنا على إنارةِ كلّ ما يتصلُ بالعلاقة المتينة والمديدة التي قامت بين الطوسيّ وابن البرّاج . ولستُ أكتمُ أنّ هذا الفصل عندي هو أجملُ فصول الكتاب (وليس أكثرُها أهميّةً) . ذلك أنه يُلقي ضوءاً مُنيراً على سريرة وحوافزعلَميَن مؤسّسيَن رائديَن وهما يعملان . وذلك أمرٌ لا يحظى

كاتبُ السّيرة بمثله إلا نادراً . فضلاً عن أنّ مثلها نادرٌ جدّاً في العلاقات بين الكبار . بدأتْ مُلتبسةً في "بغداد" ، ولكنها بعد أن افترقتْ بهما السُّبُل ، فعاد ابنُ البرّاج إلى "طرابلس" ، واتجه الطوسيُّ إلى "النجف" . ، تحوّلتْ إلى علاقة تكاملٍ وتعاون . طالتْ زُهاء ربع قرنٍ من الزمان . وأثمرتْ من الأعمال العلميّةِ ما يزالُ موضعَ العناية والاستفادة حتى اليوم . وهذه حالةٌ لا أعرفُ لها ثانيةً . ألفتَتْ نظرَ المَعنيين من قبلنا بما فيها من خصوصيّة . بحيث أنه وُجدَ من وضعها تحت عنوانٍ تمثيليٍّ : "**خليفة**" . وقد عالجنا هذه النقطة التفصيليّة في الفصل التالي . حيث وصلنا إلى أنّ هذا العنوان وما يعنيه ، هو إسقاطٌ من زمنٍ مُتأخّرٍ على زمنٍ مُتقدّمٍ . طبعاً دون أن يعني ذلك أصلَ العلاقة المتينة المديدة المُثمرة .

الفصلُ الرّابع "ابنُ البرّاج في طرابلس". وهوآخرُ فصول الكتاب وذروةُ البحث . عرَضنا فيه لأعماله في وطنه. وقد وضعناه ، تسهيلاً للتحليل ، تحت عناوين ثلاثة : مُدرّساً ، قاضياً ، مُصنّفاً . كلُّ عنوانٍ منها يتناولُ وجهاً من وجوه نشاطه البارزة والأساسيّة . على أنّ ذلك لا ينفي وجودَ وجوهٍ أُخرى ، ممّا يتصلُ بأشكالٍ اقلَّ بروزاً لحضورِ عالمٍ دينيّ من مثله بين الناس . وقد وقفنا فيما علّقنا به على تصانيفه على كتابه (جواهرُ الفقه) ، حيث رجّحنا أنه جمعَ فيه الأجوبةَ على استفتاءاتٍ فقهيّةٍ وُجّهتْ إليه .

ممّا ينبغي التأكيدُ عليه هنا ، وقد ألمحنا إلى بعضه في مطاوي البحث ، أنّ هذه العناوين تعني ، إذ يكون موضوعُها فقيهاً عاملاً في الظّرف الذي عمل فيه ابنُ البرّاج ، معنىً مُختلفاً . أريدُ أن أقولَ أنه كان مُدرّساً بالفعل، ولكن ليس كمُدرّسٍ يعملُ في بيئةٍ علميّةٍ مُتمرّسةٍ ، قد بنَتْ تقاليدَها الأكّاديميّة ، ولم يبقَ على المُدرّس فيها إلا أن يُطبّقها. وهكذا القولُ في الوجهيَن الآخَرَين . لقد كان في كلّ هاتيك الوجوه مؤسّساً ورائداً ، على تفاوتٍ في معنى الرّيادةِ والتأسيس .

من المعلوم عند القارئ الحصيف ، الذي وعى قلبه الحالةَ الانقلابيّة التي أسّسَ لها الكراجكيُّ من قبلُ ، وتابعَ ابنُ البرّاج العملَ عليها ، أنّ هذا كان يُمثّلُ العقلَ الفقهيّ الذي استوى على سُوقهِ وآتى أُكُلهُ في "بغداد" الشيخ المُفيد . هذا كلامٌ يسهُلُ قولُهُ ويصعُبُ التّحديد . فمثلاً ، نحن نعرفُ أنه في قضائهِ كان مَقوداً للنهج الفقهيّ الذي نقرأه في كتابه (المُهذّب) . ولكنّنا نعرفُ ايضاً أنّ منصبَ القضاء كان شيئاً مُختلفاً في بيئةِ "طرابلس" وأُمرائِها المُستنيرين بني عمّار. كما نعرفُ أنّ قضاءَه فيها كان مَسبوقاً بقاضٍ كلُّ ما عندنا يدلُّ على أنه كان فقيهاً إمامياً ، هو أبو طالب عبد الله ، أميرُها فيما بعد ، ولكن كان مِن قبلِه قُضاةٌ يعملون بمُقتضى المذهب الإسماعيلي . فكيف تعامل ابنُ البرّاج مع هذا الواقع . والسؤالُ ينسحبُ بدرجةٍ أقلّ بكثير على عمله مُدرّساً ومُصنّفاً . نقولُ "**بدرجةٍ أقلّ بكثير**" ، لأنّ ما وصلنا من فقهه لا يخرجُ على ما كان دائراً آنذاك في البيئة الإماميّة في "بغداد" و"قم" و "الرّيّ" . والأمرُ بحاجةٍ إلى دراسةٍ أوسع ، لسنا . وأسفاه . نملكُ أدواتها ، بسبب ضياع أكثر كُتُبه ، وبعضُها أوسع بكثير من كتابه (المُهذّب) ، كما عرفنا من ثبْتِ تصانيفه أعلاه .

(3)

الشكرُ لله سبحانه على ما وفّقَ إليه من هذا البحث على صَعْبه . والحقيقةُ أنني عندما شرعتُ فيه كانتُ تملؤني الخشيةُ من أن لا أتمكّنَ من قضاءِ حقّه بسببِ شُحِّ المصادروعَولها عن المُشكلات . ولكنّني إذ أُرجِعُ النّظرَ فيه الآن أشعرُ بشيءٍ من الرّضى . ليس لأنّني قد تحقّقَ لديَّ كلُّ ما أبغيه منه . بل لأن ما تحقّقَ بالفعل هو أكثرُ ممّا كنتُ أتوقّع . إنّه سحرُ البحث .

والحمد لله ربِّ العالَمين

—

مكتبةُ البحث

مآخذُ الكتاب . وهي منسوقةً أبتثيّاً على أسماء مُصنّفيها ، مُعتمدين أشهرَ ما يُعرَفَ به المُصنّف من لقبٍ أو كنية ، وإلا فالاسم . وعلى كلّ حال ، فسنذكرُ الاسم كاملاً ، تالياً اللقبَ أو الكنية حيث يُذكَران . ولم نأخذ في النّسق بألفاظ "أب" و "ابن" وما إليها .

آغا بُزُرك ، محمد محسن الطهراني :

. الذّريعة إلى تصانيفِ الشيعة . ط . بيروت ، دار الأضواء ، لات.

. طبقات أعلام الشيعة . ط . قم ، مؤسّسة إسماعيليان ، لات .

ابنُ الأثير ، علي بن محمد الشّيباني :

. الكامل في التاريخ . ط . بيروت ، دار صادر ، لات.

أحمد شلبي :

. دراساتٌ في الحضارة الإسلاميّة ط . القاهرة 1971م .

أحمد بن فضل الله العُمَري :

. مسالكُ الأبصار في ممالك الأمصار . ط . بيروت 1406هـ/1985م باعتناء دوروتيا كرافولسكي .

أسدُ الله التُستري :

. مقابسُ الأنوار ونفايسُ الأسرار . ط . إيران 1322هـ .

إسماعيل باشا البغدادي :

. هديّةُ العارفين . ط . بيروت مُصوّرةٌ عن طبعةِ إستامبول 1955م .

ابن البرّاج ، عزّ الدين عبد العزيز بن نحرير :

. جواهرُ الفقه ط . قم ، مؤسّسة النّشر الإسلامي 1411هـ .

. شرحُ جُمّل العلم والعمل . ط . مشهد 1352هـ . ش. باعتناء كاظم مدير شانه جي

:

. المُهذّب . ط . قم ، مؤسّسة النشر الإسلامي 1306 هـ .

البلاذُري ، أحمد بن يحيى :

ـ فُتوحُ البلدان . ط . القاهرة 1377 هـ/1957م ، باعتناء عبد الله وعُمر الطّبّاع .

التّفرشي ، مصطفى بن الحسين :

ـ نظام الأقوال في أحوال الرجال . ط . طهران 1382 هـ .

جرجي زيدان :

ـ تاريخُ التّمدُّن الإسلامي . ط . القاهرة 1958 م .

جعفر السُّبحاني :

ـ تَذكرةُ الأعيان . ط . قُم 1419 هـ .

جعفر المُهاجر :

ـ أعلامُ الشيعة . ط . بيروت 1431 هـ / 2010 م

ـ التأسيسُ لتاريخ الشيعة في لبنان وسورية . ط . بيروت 1413 هـ/1992م .

ـ جبلُ عامل بين الشّهيديَن . ط . دمشق 2005 م .

ـ محمد بن علي بن عثمان الكراجكي . ط . بيروت 1431هـ/2010م .

ابن حجر العسقلاني :

ـ لسانُ الميزان . ط . حيدر آباد الدّكَن 1330 هـ .

الحُرُّ العاملي ، محمد بن حسن :

ـ أملُ الآمل في عُلماء جبل عامل. ط . بغداد 1385هـ، باعتناء أحمد الحسيني .

أبو الحسن التُّهامي :

ـ ديوان . نشرة المركز الإسلامي ببيروت ، الطبعة الثانية ، لات .

حسن هادي الصّدر :

ـ تأسيسُ الشيعة لعلوم الإسلام . ط . بيروت 1401 هـ / 1981 / .

حسين النُّوري :

ـ مُستدرَك الوسائل . ط . حجريّة مُصوّرة عن ط . طهران 1383 هـ .

الخوئي ، السيّد أبو القاسم :

ـ مُعجم رجال الحديث . ط . بيروت 1403 هـ / 1987 م .

الخوانساري ، محمد باقر :
ـ روضاتُ الجنّات في أحوال العلماء والسّادات . ط . قُم 1391 هـ .
الذّهبي ، محمد بن أحمد بن عثمان :
ـ تاريخُ الإسلام ووفياتُ المشاهير والأعلام . ط . بيروت 1405 هـ / 1984 م.
ـ سِيَرُ أعلام النُبلاء . ط . بيروت 1405 هـ / 1984 م .
ـ ميزان الاعتدال . ط . بيروت 1382 هـ / 1963 م .
سِبطُ ابنَ الجوزي ، يوسف بن قزأوغلي :
ـ مرآةُ الزمان في تاريخ الأعيان . ط . انقره 1968 م .
ابن شدّاد ، محمد بن علي :
ـ الأعلاقُ الخطيرة في ذكر أُمراء الشام والجزيرة . ط . دمشق 1962 باعتناء سامي الدّهّان .
ابن شهر آشوب المازندراني ، محمد بن علي :
ـ معالمُ العُلماء . ط ز بيروت ، دار الأضواء ، لات .
الصّفدي ، خليل بن أيبك :
ـ الوافي بالوفيات . نشر المعهد الألماني / الشرقي في بيروت بسنواتٍ مُتعدّدة .
الطوسي ، محمد بن الحسن :
ـ الرجال . ط . النجف 1381 هـ / 1961م .
ـ الرسائل العشْر . ط . قُم 1399 هـ / 1978 م .
ـ الغَيْبَة . ط . قُم 1411 هـ باعتناء الطهراني وناصح .
ـ الفهرست . ط . بيروت 1403 هـ / 1983 م .
عباس القُمّي :
ـ الكُنى والألقاب . ط . طهران 1368 هـ . ش .
عبد العزيز بن سالم :
ـ طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي . ط . الإسكندريّة ، لات .
عبد الله أفندي الإصفهاني الجيراني :
ـ رياض العُلماء وحِياض الفُضلاء . ط . قُم 1401 باعتناء أحمد الحسيني .

عبد المُحسن بن غلبون الصّوري :

. ديوان . ط . بغداد 1980 هـ .

ابن العديم ، عُمر بن أحمد الحلبي :

. الانصافُ و التّحرّي في دفع الظلم والتجرّي عن أبي العلاء المعرّي . مخطوطٌ في دار الكُتُب المصريّة ، الخزانة التيموريّة برقم 1085 .

عُمر تدمري :

. تاريخ طرابلس السياسي والحضاري . ط . بيروت 1404 هـ/1984م.

عُمر كحّالـة

. مُعجم المؤلفين . ط . بغداد ، مكتبة المُثنّى ، لات.

قاسم عبده قاسم :

. التنظيم البحري الإسلامي شرقي المتوسّط . ط . بيروت 1908 م .

ابن القلانسي ، أبو يعلى حمزة :

. ذيل تاريخ دمشق . ط . بيروت 1908 م .

القلقشندي ، أحمد بن علي :

. صُبح الأعشى في صناعة الإنشا . ط . مصر ، المؤسّسة المصريّة العامّة للتأليف والترجمة والنشر ، لات .

. نـهاية الأرب في أنساب العرب . ط . بيروت 1400 هـ / 1980 م .

الكراجكي ، محمد بن علي :

. التفضيل . ط . طهران 1403 باعتناء المُحدّث جلال الدين الأُرموي .

. معدن الجواهر . ط . قُم 1330 هـ باعتناء حسين البروجردي .

المجلسي ، محمد باقر :

. بحار الأنوار . ط . بيروت 1403 هـ / 1983 م .

أبو المحاسن ابن تغري برْدي :

. النجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة . ط . مصر 1938 م .

محسن الأمين :

. أعيان الشيعة . ط . بيروت ، دار التعارف . لات .

محمد تقي الحكيم :

. الأصول العامّة للفقه المُقارَن . ط . بغداد 1979 م .

محمد بن عبد الله المُسبّحي :

. أخبار مصر . ط . مصر 1980 م باعتناء وليم ج . ميلود .

محمد علي مُدرّس :

. ريحانة الأدب في تراجم المعروفين بالكُنية واللقب .ط. طهران 1358هـ.ش.

محمد كُرْد علي :

. خطط الشام . ط . دمشق 1929 م .

محمد مهدي بحر العلوم :

. الفوائد الرّجاليّة . ط . النجف 1385 هـ / 1965 م .

محمد هادي الأميني :

. مُعلّم الشيعة الشيخ المفيد . ط . بيروت 1417 هـ / 1993 م .

محمد بن يوسف الكندي :

. وُلاةُ مصر . ط . بيروت ، دار صادر . لات .

المقريزي ، أحمد بن علي :

. اتعاظُ الحُنفا بأخبار الفاطميين الخُلفا . ط . القاهرة 1984 م .

مُنتجَب الدين الرّازي ، علي بن بابويه :

. الفهرست . ط . قُم 1366 هـ باعتناء جلال الدين المُحدّث الأُرموي .

ناصر خسرو القُبادياني :

. سفر نامه . ترجمة يحيى الخشّاب . ط . بيروت 1970 م .

النجاشي ، محمد بن علي :

. الرجال . ط . بيروت 1408 هـ / 1988 م باعتناء محمد جواد النائيني .

ابن نقطة الحنبلي :

. تكملةُ الإكمال . ط . مكة 1408 هـ باعتناء عبد القيّوم عبد ربَ النبي .

يحيى بن سعيد الإنطاكي :

. صلة تاريخ أوتيخا . ط . بيروت 1909 م .

اليعقوبي ، ابن واضح :

. كتاب البلدان . ط . ليدن 1891 م

—

كشّافٌ تحليليٌّ بأسماء الأعلام

—

مُلحَـقٌ

بما تيسّرَ من سيرة وأعمال

أسعد بن أحمد بن أبي روح الطرابلسي

(ق: 504هـ / 1110م)

اعتذارٌ وتبرير

ـــ

لكمْ حدّثنا النفسَ ومَنّيناها بأن نُثلّث على سيرتَي علمَي "طرابلس" الكبيرين : الرّائدِ الكراجكي ، وقد نُشرتْ سيرتهُ في كتابٍ مُستقل ، وابنِ البرّاج وسيرته التي غادرناها على التَوّ . ، بسيرةِ ثالثِ أعلامِها وخاتمتِهم أسعدُ بن أحمد بن ابي روح . وهو بالتأكيد ليس أقلّ الثلاثة قدْراً . وبذلك نقضي ما يسعُنا قضاؤه من حقّ أولئك الأعلام الثلاثة ، بإحياءِ ذكرهم ، وتجديدِ أعمالهم . كما نقضي ضمناً جزءاً من حقّ مدينتهم ونهضتها العظيمة والقصيرة العُمُر . من حيثُ أنّ هؤلاء الأعلام يُمثّلون روحَها وهي تُنجِبُ مَن يُمثّلُ ذاتيَّتها الثقافيّة والحضاريّة .

بيدَ أنّ الأماني سرعان ما انطفأتْ وحالَتْ . لالشيءٍ إلا للشُّحِّ الفاحشِ بالمعلومات عن سيرته في المصادر. بحيثُ بدا لنا أنّ ما كُنّا نشكو منه في دراستنا على سلفيَه ، كان نسبيّاً خَصْباً وريّاً نعمْنا بهما هناك . ولم نُقدّر قيمتهما إلا بعد ان افتقدناهما في هذا .

هكذا ، وبناءً على قاعدة (لا يُترَكُ الميسور بالمعسور) ، رأينا أن نكتبَ على سيرته الصفحاتِ التالية . نجودُ فيها من الموجود . ونستفرغُ الوُسعَ والمُتاح . مع علمنا بأنها ستكون حتماً أقلَّ بكثيرٍ ممّا يستحقّ ونرجو .

فهذا اعتذارٌ عن الإلحاق ، وتبريرٌ للإيجاز. نرجو أن يكونا موضعَ تفهُّم القارئ .

ـــ

تقديم

. . . . . وممّا هو في غنىً عن البيان ، أنّ كثيراً جدّاً ممّا قلناه فيما قدّمنا به أعلاه لسيرة ابنِ البرّاج يصِحُّ هنا أيضاً . وذلك لوَحدَة البلديّةِ والمسارِ والمرامي بين الاثنيَن . مع ضرورة الأخذ بعين الاعتبار فارقاً أساسيّاً ، هو أنّ أُستاذَ ابنِ أبي روح ابنَ البرّاج لم يُدرك أيّام وطنه السّوداء ، بل عاش حياةً هانئةً ، لا يُعكّرُ صفوَها شئٌ كبيرٌ فيما يبدو . مُنصرفاً إلى شؤونِ حياته الأساسيّة الثلاثة : التدريس والقضاء والتصنيف ، التي قلنا ما عندنا عليها . مُحاطاً باحترام ورعاية أميرها وشعبها وتبجيلهم. ومات قبل تباشير الغزو الصليبيّ لوطنه باثنتي عشرة سنة . وقبل بَدئهم بحصارمدينته "طرابلس" بثماني عشرة سنة . وقبل سقوطها باثنتين وعشرين سنة . أمّا ابنُ أبي روح فقد اصطلى بنار ذلك كلّه وأكثر. بل كان وقوداً له ، في أرجح ما قيل عن نهاية حياته . وسنقِفُ على ذلك كلّه فيما سيأتي إن شاء الله . وطبعاً ، كان لذلك تأثيره البالغ على كافّة شؤون حياته .

يُمكننا أن نرى انعكاسَ نمط الحياة القاسي الذي ابتُلي به ابنُ أبي روح إذ نعرضُ لمصادر سيرته . فعلى الرُّغم من النواحي الكثيرة التي تلتقي فيها سيرتُه بسيرةِ أُستاذه ابن البرّاج ، وأيضاً على الرغم من المكانة العالية التي كانت له بين الشيعة في كلّ "الشام" ، كما سنعرف ، فإننا لا نجِدُ له ذكراً في المصدريَن الرّئيسيَن لرجال الشيعة في زمانه : (الفهرست) لمُنتجَب الدين ، و(معالم العلماء) لابن شهرآشوب . وكذلك في (أمل الآمل) للحرّ العاملي . حتى ولا في (رياض العلماء) لعبد الله أفندي الإصفهاني، الذي اعتدنا أن نتّكلَ على همّته العالية وصبره ودأبه في التّنقيب حيث تعِزُّ علينا المعلومات . مع أنه ذكَرَه خطأً ، بل خطأيَن ، أوّلاً بوصفه تلميذاً للسيّد المُرتضى ، وثانياً بأن أوردَ اسمَه هكذا : "ابن روح" . وكان من نتيجة ذلك كلّه ، أننا نفتقدّهُ أيضاً في المصادر المُتأخّرة : (روضاتُ الجنّات) للخوانساري،

و(مُعجم رجال الحديث) لأستاذنا السيّد الخوئي ، و(الذريعة إلى تصانيف الشيعة) لآغا بُزُرك الطهراني . مع التنبيه على أنّ افتقادنا إيّاه في هذيَن الأخيريَن له دلالتهُ الخاصّةٌ ، من حيث أنّه في الثاني يدلُّ على الغياب الكامل لابن أبي روح عن أسناد الحديث وسلاسل الإجازات . أمّا الثالث فيدلُّ على ضياع كافّة تصانيفه . بل يدلُّ أيضاً على أنّ شيخَ باحثينا لم يكُن على اطّلاعٍ عليها . ذلك لأنه لم يلتزم في كتابه بذكرِما هو موجودٌ بالفعل من "تصانيف الشيعة" ، بل يكفي عنده أن تكونَ مذكورةً ليُدرجَها فيه. مع أنه ترجم له في (الثقات العيون) من (طبقات أعلام الشيعة)، وذكرَ عدداً جيّداً من مُصنّفاته . كما سبقَ أن ترجم له أيضاً في (النّابس) ترجمةً عجيبةً حافلةً بالأخطاء نحارُ في صدورها من مثله ، خلافاً لِما عوّدنا عليه من ضبطٍ وتدقيق ، أتى فيهاعلى ذكرِ كتابٍ واحدٍ حَسْبُ من كُتُبه .

إذن ، فنحن في هذا الذي ارتضينا منه بما تيسّر، نغرفُ من بحرٍ جفّ مَعينُه . ونستقي من نبعٍ غارَ ماؤه . وإذن . نسألُ . على ماذا اعتمدنا فيما وعدنا به القارئ في العنوان ؟

ونقولُ في الجواب :

الحقيقةُ أننا اعتمدنا على مصادرَ غير شيعيّة . في رأسها ، من حيث علوِّ سندِها وأهميّتها ، (لسان الميزان) لابن حجر العسقلاني ، فيما نقله عن ابن أبي طيّ الحلبي (ت:630هـ/1232م) في كتابه المفقود (تاريخ / رجال الشيعة / الإماميّة) . فإن كان هذا هو أصلُ كلِّ ما أتانا به على سيرةِ ابنِ أبي روح المؤرّخان المُتعاصران : الذهبيُّ (ت:748 هـ/1346م) في كتُبه (تاريخ الإسلام) و(سِيَر أعلام النبلاء) و (ميزان الاعتدال) ، والصفديُّ (ت:764هـ/1362م) في كتابه (الوافي بالوفيات) . ، كما نُرجّح . فهذا يعني أن ما اقتبسه العسقلاني عن

كتاب ابن أبي طيّ المفقود ليس فقط الأعلى سنداً وبالتالي الأكثر أهميّةً كما قُلنا ، بل هو المصدرُ الأساسيّ الوحيد الباقي عن سيرةِ وأعمالِ ابنِ أبي روح ، وأنّ الذهبيّ والصفدي كلاهما كانا ناقلَين . لكنّ ما يجعلنا نتردّدُ في هذا الحُكم ، أننا نلاحظُ لديهما ملاحظاتٍ ومعلوماتٍ إضافيّةٍ عمّا اقتبسه العسقلاني . فإن كان اقتباسُ هذا أميناً ، يعني أنه لم يختزل النصّ الأصليّ لابن أبي طي ، فهو يعني أنّهما أخذا عن مصادر أُخرى غير معروفة . وإلا سيكون علينا أن نفترض أنهما سجّلا فيما أضافاه انطباعاتٍ كانت ما تزالُ معروفةً مُتداوَلَةٍ عنه في زمانهما . وسنقفُ على كلِّ ذلك في المتن إن شاء الله .

يبقى أن نقول ، إنّ بُغيتنا في الصفحات التالية ، أن نبذلَ كلَّ ما عندنا من وُسع في عِمارةِ ما هدمته تصاريفُ الزمان من سيرةِ هذا الكبير. الذي عدا عليه زمانه في حياته ، فحرمه الاستقرارَ وهناءَة العيش ، وعدا عليه بعد مماته ، فأضاعَ ذكرَه وأعمالَه . وإنما أخّرنا بيانَ البُغيةِ والغرض إلى نهاية هذه المُقدّمة ، مع أنّ محلّه منهجيّاً السطورَ الأُولى منها ، ليأتي بعد بيان العُذر .

والحمد لله ربّ العالمين

—

<u>**الفصل الأوّل**</u>

في السّيرة

ـ

(1)

لسنا نعرفُ عن ابن أبي روح شيئاً ممّا تُبدَأُ به عادةً عِمارةُ سِيَر الرجال . لا منبتَه، ولا مولدَه في المكان والزمان، ولا نشأتَه الأُولى . ولكنّ الذهبيَّ والصفديَّ كلاهما ينسبانه إلى "طرابلس": "الأطرابلسي"،"الطرابلسي"، ولم ينسُباه إلى غيرها [1]. ممّا يُرجّحُ أنه منها منبتاً ومَولداً ونشأةً ، فضلاً عمّا هو ثابتٌ من أنّه ومنزلاً .

أوّلُ ما نعرفه من خصوصيّات سيرته أنه درس على ابنِ البرّاج [1] . وبما أنّ هذا عاد إلى "طرابلس" سنة 438هـ/1046م ، وتوفي فيها سنة 481 هـ/ 1088م ، فيمكننا أن نُخمّن تخميناً صادقاً لا ريب فيه أن دراسته عليه قد حصلتْ في وقتٍ ما بين هذين التاريخيَن . و بما أننا نعرفُ أنّه جلسَ مجلسَ أُستاذه بعد وفاته مُدرّساً وقاضياً ، فيُمكننا أن نُخمّنَ أيضاً ، على نحوٍ أقلّ يقيناً ، أنّ تاريخَ مولده هو وقتٌ ما من أواسط القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد .

لا صحّةَ إطلاقاً لِما ردّده عبد الله أفندي مرّتيَن، أنه تتلمذ للسيّد المُرتضى[2] . مُستنداً في زعْمه إلى ما قال أنه رآه بخطّ الشيخ حسن بن زين الدين الجُباعي ، على كتاب (الفهرست) الشيخ الطوسي ، عن "**خطّ الشّهيد الأوّل في بعض مجاميعه**" [3] . أولاً لتفرّده بذلك ، مع مُخالفته لقولَي الذهبيّ والصفديّ . وأمرٌ كهذا لو كان صحيحاً

---

(1) الذهبي : تاريخ الإسلام (510.501) / 447 وسير أعلام النبلاء : 19 / 499 والصفدي : الوافي بالوفيات : 9 /40 .

(2) رياض العلماء : 4 / 16 .

(3) نفسه / 17 .

لعُرِف ، ولكان أحرى بالذّكرعلى غير هذا النحو. ثم أنّ المُرتضى جلسَ مجلسَ أستاذه الشيخ المفيد سنة 413هـ/1022م، وتوفي سنة 436هـ/ 1044م . ممّا يقتضي أن ابن أبي روح ، إن كان حقّاً من تلاميذه ، قد عاش عُمراً طويلاً جدّاً . وهذا أيضاً لم يقُله أحدٌ ، مع أنه ، هو الآخَر، حَريٌّ بالذّكر لو كان صحيحاً.

والظاهرُ أنّ ابنَ البرّاج هو أُستاذُه الوحيد ، وأنه هو لم يدخل "العراق" طيلة حياته . وإلا لعُرف وانتشر صيتُه ، ولربما دخلَ في سلاسل الإجازات ، وعن طريقها في كُتُب التراجم والسَّيَر ، ولَما كُنّا اليومَ نُعاني الأمَرّيَن في تصيُّد خفايا سيرته من لوازم الكلام والوقائع .

ثم أنّ من المُؤكّد أنّ دراسته عليه كانت في "طرابلس" ، لأننا نعرف على نحوٍ لا يقبلُ الشّك أن ابنَ البرّاج مُذ رجع إلى "طرابلس" من "بغداد" بعد أن استوفى طُعمتَه منها ، لم يكُنْ يُغادرها إلا لَماماً ، مثلما يُغادر المرءُ بلدَه لبعض شأنه ثم لا يلبث أن يرجعَ إليه . فضلاً عن أنّ عامّةَ تلاميذه قد قرأوا عليه فيها .

إذن ، فابنُ أبي روح هو أوّلُ مَن تخرّجَ من مدرسة "طرابلس" الناهضة ، دون الاستعانة بشيوخ وعُلماء "بغداد" و "النجف" . وإذن أيضاً ، فهذه إمارةٌ على أنّ المدينةَ ، التي لم تكُنْ إلى ما قبل قليل شيئاً مذكوراً في الحواضر العلميّة ، قد بدأتْ تشِبُّ عن الطّوق ، وتتّخذُ طريقَها إلى أن تُصبحَ حاضرةً علميّةً مُستقلّة ، تُنجبُ العلماء . لولا أنّ أتاها الزمانُ من حيث لا تحتسب . فاستولى عليها غرباءُ قادمون من البعيد القصيّ. وتبعثرَ النّاجون من أهلُها في مُختلَف الأقطار والدُّروب . وغدتْ إمارةً لاتينيّةً غريبةَ الوجه واللسان .

(2)

أقامَ ابنُ أبي روح في بلده "طرابلس" ، مُنصرفاً إلى مثلِ ماينصرفُ إليه أمثالُه من العلماء . وبعد وفاة أُستاذه ابنُ البرّاج ولاّهُ أميرُها جلالُ المُلك على

قضائها . ولكن بما أننا في هذه السّيرة الأوّليّة مُلتزمون بمُتابعةِ أطوار حياته طوراً بعد طورحتى نهايتها ، فسنؤجّلُ الكلامَ على أبرز أعماله ، ومنها تولّيه القضاء ، إلى ما بعد استيفاء الكلام على سيرته . وعليه نُتابع الكلامَ على سيرته :

يقولُ الذهبيُّ في (تاريخ الإسلام) أنّ ابنَ ابي روح " **انتقل من طرابلس إلى صيدا وأقام بها وكان مرجعَ الإماميّةِ بها إليه . فلم يزْل بها إلى أن ملكتْ الفرنجُ البلاد** " [4] . وقد كرّرَ شيئاً من قوله هذا في كتابه الآخَرَ (سِيَر أعلام النبلاء) [5] .

بيدَ أنّ العسقلانيَّ يقول : " **أظنّهُ قُتل عندما ملكتْ الفرنجُ حيفا . فإنّه كان تحوّلَ إليها ، واتخذَ بها داراً للكُتُب جمع فيها أزيدَ من أربعة آلاف مُجلّدة** " [6] . والغريبُ أنّهما كلاهما ينسبان اصلَ الخبر إلى ابن أبي طيّ الحلبي في كتابه المفقود (تاريخ/رجال الإماميّة /الشيعة) . إذن ، فالأمرُ مُلتبِسٌ في أمرِ البلدِ الذي انتقل إليه ، مع الاتفاقِ على أصل الانتقال ، التباساً يقتضي ما يسعُنا من التدقيق . وهنا نقول :

بالنسبةِ إلى أصل الانتقال فمن المُرجّح جدّاً أن سببه هو ما نزلَ بـ "طرابلس" من حصارٍ صليبيٍّ قاسٍ ، طال مُدّة أربع سنوات قبل سقوطها ، عانى فيها أهلُها أثناءَها الأمرّين من القتال والافتقار إلى أسباب العيش . وإلا فما الذي يدعو رجلاً له ما عرفنا من المكانة العاليةِ وطِيبِ العيش في بلده إلى هجْره ؟

ومن الثابت والمعلوم أن ضرْبَ الحصار على المدينة بدأ جِدّيّاً سنة 499هـ/ 1105م . وأنّ سقوطَها حصلَ سنة 503هـ/1109م. إذن ، فيمكنُ البناءُ على ذلك أنّ خروجه منها قد حصل في وقتٍ ما أثناءَ تلك السنوات الأربع . وهذا واضح .

---

(4) تاريخ الإسلام (510501) / 448 .

(5) سِيَر أعلام النبلاء : 19 / 499 .

(6) لسان الميزان : 1 / 386 .

أمّا بالنسبة إلى موضع الاختلاف ، فمن الواضح أن سببَه هو تصحيفٌ أصابَ كلمة " حيفا / صيدا " ، التي هي في الأصل المنقول عنه واحدةٌ ولا ريب . والتصحيفُ إمّا في النسخة التي أخذ عنها المؤلّفان ، وإمّا في تحقيق المطبوعة . وبما أن نشْرةَ كتابَي الذهبي نشرةٌ علميّةٌ مُحقّقة ، خلافاً لنشرة (لسان الميزان) البائسة ، فهذا يُرجّحُ روايةَ الأوّل . فضلاً عن أنهما شهادتان في مُقابلِ واحدة . بالإضافةِ إلى أنّ الذهبي يوردُ في (تاريخ الإسلام) عبارةً يصعُبُ جدّاً تصوّرُ طُرؤ التصحيف عليها. قال : " **قال ابنُ أبي طيّ ، فأظُنّهُ قُتل بصيدا عندما ملكتْ الفرنجُ البلاد** " .

ولكنّ العسقلاني يوردُ معلومةً لا بُدّ من أخذها بعين الاعتبار في هذا التدقيق . ذلك حيث يقول . والكلامُ على ابنُ أبي روح ، ودائماً عن ابنِ أبي طيّ . :" **عُقدتْ له حلقةُ الإقراء وانفردَ بالشام وطرابلس وفلسطين**" [7].وهو نصٌّ لا سببَ عندنا للشّكِّ فيه كلّه . المُهمُّ عندنا منه الآن قوله "**وفلسطين**" ، التي تتقاطعُ مع نزوله " حيفا " وتصلحُ تفسيراً لها . على أنه من الإنصاف أن نقول أيضاً، أنّ هذا الكلام إجمالاً هو انطباعٌ عامٌّ ، ممّا نجِدُهُ عند ذوي الاطّلاع الواسع ، ومنهم ابنُ أبي طيّ ، ولا يقتضي بالضرورة أن يكونَ انفرادُهُ في تلك الأماكن أن يكونَ قد سكنَ فيها جميعَها .

ثم أنّ هاهنا اعتبارٌ سُكّانيٌّ لا بُدّ من أخذه بعين الاعتبار أيضاً . هو أنّ "صيدا" كانت في ذلك الأوان ذاتُ أكثريّةٍ سُكّانيّةٍ شيعيّة على الأقلّ . أمّا "حيفا" ، فمع علمنا إجمالاً بأن التشيّع كان مُنتشراً انتشاراً واسعاً جدّاً في كافة أنحاء "الشام" قبل الصليبيين ، فإننا لا نجِدُ في كافة المصادر بأنواعها أيَّ ذكرٍ للتشيُّع أو الشيعة فيها . ومن المُستبعّدِ جدّاً أن يختارَ ابن أبي روح موطناً له بعد أن خرج من "طرابلس" ليس له فيها قواعد ممّن يرجعون إليه بحُكم مذهبهم . فضلاً عن أن يتّخذَ بها داراً

---

(7) نفسه .

كبيرةً للكُتُب كما قال العسقلاني [8] . هذا ، فضلاً عن أننا نعرفُ أنّ "حيفا" سقطتْ في تاريخٍ مُبكّر نسبيّاً ، سنة 494 هـ / 1100م بالتحديد . أي قبل بَدءِ حصار "طرابلس" بخمس سنوات . الأمر الذي يقتضي ، بناءً على رواية العسقلاني ، أنه غادر"طرابلس" دون سببٍ قاهرٍ ممّا يضطرُّ الناسُ معه إلى مُغادرة أوطانهم ، ولجأ إلى مدينةٍ مُحاصَرةٍ أو مُحتلّة . وذلك أمرٌ غير معقول ، ويتعارضُ مع كلّ ما نعرفهُ من وضعه المُستقرّ في "طرابلس" ، ممّا ألمحنا إليه فيما فات ، وسنصفُه بالتفصيل المُمكن إن شاء الله فيما سيأتي .

كلُّ هذا ، فضلاً عن أنّ في "صيدا" حتى اليوم قبرٌ قديمٌ ، يُسمّى على ألسنة أهلها بـ "قبر ابن روح" . ربما ، بل من المُرجّحُ جِدّاً ، أنه قبره . خصوصاً وأننا نعرف أن أهلَ هذه المدينة لم يُخرَجوا منها جميعاً عند سقوطها ، كما فُرض على أهل "طرابلس" من قبلُ و "صور" من بعدُ . بل "**أقامَ بالبلدِ خلقٌ كثيرٌ تحت الأمان** " [9]. ذلك لأنّ الصليبيين الهنغاريين / المجريين الذين احتلّوها كان يُعانون من نقصٍ في العديد ، بحيثُ أنهم لم ينجحوا في الاستيلاء على المدينة إلا بمساعدةٍ مؤقّتةٍ من الصليبيين الجَنَويين ، الذين غادروا المنطقة بسفُنهم إثرَ فتح "صيدا" . فكانوا بحاجة إلى مَن يبقى في المدينة لإدارة شؤونها اليوميّة والعملِ لهم . ويؤخَذُ من ذلك أنه بقيتْ فيها قاعدةٌ شعبيّة شيعيّةٍ وافرةٌ من أهلها الأصيلين ، حافظتْ على قبر شيخها القتيل . بحيثُ أمكنَ أن يبقى معروفاً حتى اليوم . على الرّغم من أنّ المدينة بقيتْ تحت الاحتلال من بعدُ مائةً وإحدى وثمانين سنة شمسيّة عَدّاً .

نخلُصُ من هذا التدقيق إلى القول على نحو الظنّ القويّ ، أن ابنَ أبي روح

---

(8) أيضاً .

(9) ابن الأثير : الكامل في التاريخ / حوادث سنة 405 .

غادر "طرابلس" أثناء حصارها من الصليبيين سنة 496هـ /1102م تقريباً ، في الفترة التي انفرج فيها الحصار مؤقتاً بفضل نُجدة أميري "دمشق" و "حمص" للمدينة المُحاصَرة ، مُصطحباً مكتبتَه الخاصّة . واستقرّ في "صيدا" مُدّةَ سبع أو ثماني سنوات . وفيها ، وليس في "حيفا" كما قال العسقلاني ، أنشأ دار الكُتُب . إلى أن قُتل أثناءَ العمليّات القتاليّة التي سبقتْ أو رافقت فتحَها من قِبَل الصليبيين سنة 504 هـ / 1110 م ودُفن فيها . وما من دليلٍ على ما يُقال من أنه قُتل في "حيفا" سنة 494هـ [10] . او أنه انتقل إلى "دمشق" ومات فيها [11] ، وفقاً لروايةٍ ينقلها الذهبي. أو أنه " **تُوفّي في حُدود العشرين وخمسمائة** " [12] ، كما تقولُ المصادرُ المذكورةُ أدناه .

---

(10) لسان الميزان : 1 / 386 .

(11) تاريخ الإسلام (501 ـ510) / 448 .

(12) لسان / نفسه .

—

انطباعاتُ المُصنفين عن ابن أبي روح

وشـئٌ عن مكانته

—

(1)

يصِفُ الذهبيُّ والصّفديُّ كلاهما ابنَ أبي روح بـ " **رأسُ الشيعة بالشام** " [1] . وهو وصفٌ استفاده الاثنان ، خصوصاً الثاني منهما ، ليس من مصدرٍ بعينه فيما نحسَبُ ، بل من معرفتهما العميقة بأوضاع الشيعة في "الشام" تاريخيّاً ، وبموقعِ ابن أبي روح خصوصاً منها، وأكادُ أقولُ، لولا الافتقارإلى الدليل الصّريح المنصوص ، أنّ وصفهما له بـ " **رأس** " يستندُ إلى أصداءٍ كانت باقيةً بشكلٍ أو بغيره حتى زمانهما ، اي حتى القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر للميلاد ، عمّا كان له من موقعٍ عالٍ بين الشيعة في تلك المنطقة الشاسعة .

يؤيّدُ ذلك نصٌّ ينقله العسقلاني عن ابن أبي طي ، يصلحُ تفسيراً للانطباع الذي سجّلاه ، قال فيه :" **عُقدَتْ له حلْقةُ الإقراءِ ، وانفردَ بالشام وطرابلس وفلسطين** [2] . ولولا يقيننا بأنّ الذهبي والصفدي لم يطّلعا عليه ، لسببٍ بسيط هو أنّ العسقلاني (ت:852هـ /1448 م) قد عاش بعدهما . ، لقُلنا هوذا مصدرُ انطباعِهما . وعلى كلّ حال ، فإنّ النصّيَن يتقاطعان ويُكمِلُ أحدُهما الآخرَ. وهذا من أقوى الأدلّة . إذن ، فقد كان "**رأسُ الشيعة بالشام** " لأنه " **عُقدَتْ له حلْقةُ الإقراء** . . ." ، ولأنّه كان العالمَ الشيعيّ الأبرز في "الشام" كلّه . وما تخصيصُ "طرابلس" و "فلسطين" بالذّكر بعد "الشام" مع أنهما منه ، إلا دليلٌ على أنّ حضورَه فيهما كان الأقوى . وإذا كان تخصيصُ "طرابلس" مفهوماً باعتبارأنّها مركزُ عمله الأساس والأوّل ، كما عرفنا ،

—

(1) تاريخ الإسلام (510.501) / 447، وقال في (سِيَر):" رأسُ الرَفض بالشام" ، والوافي بالوفيات : 9 / 40 .

(2) لسان الميزان : 1 / 386 .

فإنّ تخصيصَ "فلسطين" بالذّكر يدلُّ على أنّ هنالك جانبٌ مجهولٌ لدينا تماماً من سيرته الحافلة . تسكتُ المصادرُ عنه ، باستثناء هذه الإشارة الغامضة .

يبقى القولُ على معنى "**الإقراء**" في النصّ . فهل المعنى المقصود هو الذي يتبادرُ إلى ذهن العارف بتقنيّاتِ الكلمة ، أي إقراءُ القرآن وإحكامُ تلاوته . لا دليلَ يؤيّدُ هذا المعنى من سيرةِ الرجل واهتماماتِه الفكريّة ، كما نقرأها في تصانيفه ، ولم يقُل أحدٌ أنه اشتهر بوصفه قارئاً . ولذلك فإننا نظنُّ أن المقصود بها هو الإقراءُ عموماً ، أي ما يُساوي كلمة تدريس . وسنقفُ على ما لدينا ممّا يتصلُ بهذا الجانب من سيرته بعد قليلٍ إن شاء الله .

وممّا يُكملُ انطباعاتِ المُصنّفين عنه قولُ العسقلاني :" **كان [ابنُ أبي روح] مُتعبّداً زاهداً** " [3]. وينقلُ الذهبي عن أبي اللُّطف الدارّاني (من هو؟ . والذي يبدو ممّا سيأتي أنه كان وثيقَ الصّلة بابنِ أبي روح) أنه قال :" **ما استيقظتُ من الليل إلا وسمعتُ حِسّهُ بالصلاة** " . وعن ابن عساكر :" **كان جليلَ القدْر . يرجعُ إليه أهل عقيدته . وكان عظيم الصلاة والتهجُّد ، لا ينامُ إلا بعضَ الليل . وكان صمته أكثرَ من كلامه** " [4].

فهذا كلّه يرجعُ إلى ما تركه ابن أبي روح من انطباعاتٍ جليلةٍ عن نفسه عند مُعاصريه ، سَرَتْ إلى مَن بعدهم ، وسجّلها المؤرّخون . وفيها تصديقٌ للمأثور : أنت كما يراك الآخَرون .

(2)

بيدَ أنّ ها هنا أيضاً وقائعُ (وهذه . طبعاً . غير الانطباعات) ترويها المصادرُ . فيها مايزيدُنا معرفةً به ، حيثُ تعِزُّ المعلومات . منها بعضُ كلامه ،

---

(3) لسان الميزان / نفسه .

(4) تاريخ الإسلام / نفسه . والنصّ مفقود من (تاريخ مدينة دمشق) لابن عساكر (!) .

ومنها جوانبُ تُلقي بعضَ الضوء على سيرته . يقول الذهبي :

" **حكى الرّاشدي تلميذُه [وهو محمد بن الحسين بن مخلوف الطرابلسي] قال :** "

" **جمعَ ابنُ عمّار بين أبي الفضل [وهي كُنية ابن أبي روح] وبين مالكيّ ، مُناظرةً في تحريم الفُقّاع . وكان الشيخُ جريئاً فصيحاً، فنطق بالحُجّة ووضُحَ دليلُه . فانزعج المالكي وقال ، كُلني ! كُلني ! فقال ، ما أنا على مذهبك ! أراد أنّ مذهبه جوازُ أكل الكلب** [5] "

والذي يبدو لنا أن المُناظرةَ قد أمر بعقدها أميرُ المدينة جلالُ المُلك ليس في سبيلِ تغليبِ مذهبٍ على مذهب . بل ابتغاءَ الوصول إلى حلٍّ عمليٍّ لمُشكلةٍ قائمةٍ بالفعل . فالظاهرُ أنه كان في المدينة جاليةٌ مالكيّةُ المذهب ، تستبيحُ الفُقّاع بيعاً وشُرباً . وهو شرابٌ يُصنع بتخمير الشعير . ويحتوي على نسبةٍ قليلةٍ من الكحول . ولكنّ الشيعة يُحرّمونه ، تحت شعار أنه خمرٌ استصغره الناس . فأراد الأميرُ أن يتخلّصَ من ازدواجيّةِ التشريع ، فعقدَ تلك المناظرة بين فقيهَي المذهبيَن . التي انتهتْ إلى غلبة اتجاه التحريم . وأُلفتُ نظرَ القارئ هنا إلى ما في لحن نصّ الذهبي الشافعي من تلميحٍ غير خفيٍّ إلى شماتته بالمالكي .

كما أنه يوردُ أجوبةً ردّ بها على أسئلةٍ وُجّهتْ إليه . قال :

" **وقال له [جلالُ المُلك ؟] ابنُ عمّار يوماً : ما الدليلُ على حَدَثِ القرآن ؟ قال : النّسخ . والقديم لا يتبدّلُ ولا يدخله زيادةٌ ولا نقصٌ** " .

---

(5) لسان الميزان / أيضاً . وسِير أعلام النبلاء : 19 / 499 . وقد أشار الصفدي إلى الواقعة إشارةً موجزةً .

" وقال له آخَرُ : ما الدليلُ على أننا مُخيّرون في أفعالنا غير مجبورين ؟ قال : بعثةُ الرُّسُل " .

" وقال له أبو الشُّكر بنُ عمّار [مَن هذا ؟ ونظُنُّ أنّ كلمة "الشُّكر" مُصحّفة] : ما الدليلُ على المُتعة ؟ قال : قولُ عُمر مُتعتان كانتا على عهد رسول الله . أنا أنهى عنهما . فقبلنا روايته ، ولم نقبل قوله في النهي " [6] .

فهذه أجوبةٌ على أسئلةٍ إشكاليّةٍ دقيقةٍ ، تنطوي على منظورٍعميق . وبعضُها ممّا لم يُسبَق إليه فيما نعهد . نخُصُّ بالذّكر الرّبطَ بين حُريّةِ الإنسان وبعثةِ الرُّسُل . أوضحَ فيها رأيه بأوجز بيان . يُصوّبُ على قلبِ المُشكلة فيُصيبُ الهدفَ في الصّميم . دون الدّخول في أدلّةٍ مُعقّدةٍ تُربكُ السّائل . ممّا يدلُّ على جودةٍ في التفكير ، وقُدرةٍ على تلمّس أكثر جوانب المُشكلة أهميّةً ، وأحراها بالتركيز عليه في حَلّها . وممّا لاشكّ فيه أنّ تناقُلَ أربابَ المصادر لها هو تعبيرٌ ضمنيّ عن الإعجاب بما فيها من براعةٍ وعُمق .

---

(6) سير أعلام النبلاء : 19 / 499 وتاريخ الإسلام / نفسه . وذكر بعضَها في الوافي بالوفيات : 9 / 40 .

أعمالُـه ومُصنّفاتُـه

ـ

1 . في التّدريس

ـــ

(1)

يقولُ العسقلاني . والمَعْنيُّ بالكلام ابنُ أبي روح . :"**جلس بعد ابنِ البرّاج لتدريسِ الرّفض**" [1]. والعبارةُ نجدها لدى الذهبيُّ بنصّها [2]. وما من ريبٍ في أنّ أصلَ المعنى لابن أبي طيّ ، وأنّ الصياغة التشنيعيّة للذهبي ، والاقتباس للعسقلاني .

والظاهرُ أن هذا الكلام ينظرُ إلى منصب التدريس الرّسمي ، الذي كان مقرُّ شاغله المدرسةَ المُسمّاةَ "دار الحكمة" ، المُلحَقَة بـ "دار العلم" في "طرابلس" . والتي نُرجّحُ أنّ الذي ابتدأ إنشاءَها أبو طالب عبد الله بن عمّار . ثم جدّدها خلَفُهُ جلالُ المُلك .

وقد حفظ لنا الأدبُ بعضَ ما أضاعه التاريخُ الرّسميُّ ، من ولايةِ ابنِ ابي روح على " دار الحكمة ". وذلك في قصيدةٍ نظمها شاعرُ "الشام" في زمانه أحمدُ بن محمد التغلبي الطرابلسي ، الشهير بابن الخيّاط [3] (ت: 517هـ/1123م) . خاطبَ فيها ابنَ أبي روح بكُنيته " أبا الفضل ". نُثبتُها كاملةً لِما فيها من طلاوةٍ وجمال ،

ـــ

(1) لسان الميزان : 1 / 386 .

(2) تاريخ الإسلام (510.501) / 448 .

(3) انظر الترجمة له في : سِيَر اعلام النبلاء : 19 / 482.476 ، وما في هامشه من مصادر إضافيّة .

فضلاً عن مغازٍ ودلائل . قال :

" أبا الفضلِ كيف تناسيتني … وما كُنتَ تعدُلُ نهجَ الرّشادِ
فأوردتَ قوماً رُواءَ الصّدور … وحلأّت مثلي وإنّي لصادِ لقد
أيأستنيَ من ودّك الـ … حقيقةُ إن كان ذا باعتمادِ
منحتُكَ قلبي وعاندتُ فيـ … كَ مَنْ لايهونُ عليه عنادي أظُنُّ
نهاريَ والحاسدوك … كأنّي وإيّاهمُ في جهادِ
ويَجْذُبُ ظنّيَ فيمَن أوَدُّ … وظنّيَ فيكَ خصيبُ المُرادِ
إلى أن رايتُ جفاءً يد … لُ أنّ اعتقادَك غيرَ اعتقادي
فيا ليتني لم أكُنْ قبلها … شغَفْتُ بحبّكَ يوماً فؤادي
فإنّ القطيعةَ أشهى إليّ … إذا أنا لم أنتفع بالودادِ
بلوتُ الأنامَ فما أنْ رأيتُ … خليلاً يصِحُّ مع الانتقادِ
ولولا شماتةُ مَنْ لامني … على بَثِّ شُكرِكَ في كلّ نادي
وقولهمُ وَدَّ غيرَ الوّدود … فجوزي على قُربِهِ بالبُعاد
لَما كنتُ من بعدِ نَيْلِ الصّفا … لأرغبُ في النّائلِ المُستَفادِ
وما بيَ أن يردعَ الشّامتين … وصالُكَ بِرّي وحُسنُ افتقادي
ولكنْ لكي يعلموا أنني … شكرتُ حقيقاً بشُكرِ الأيادي
ولم أمنحِ الحمدَ إلا امرءاً … أحقُ به من جميع العبادِ
وما كُنتُ لو لم أعُم في نداك … لأُثني على الرّوضِ قبل ارتيادي
وإنّكَ أهلٌ لأن تقتني … ثنائي قبل اقتناءِ العبادِ
فلا يُحفِظنّكَ أنّي عتبتُ … فتمنعُني من بلوغِ المُرادِ
فإنّ البلادَ إذا أجدبتْ … فما نستغيثُ بغير المِهادِ
إذا ما تجافى الكرامُ الشّدا … دَ عنّا فمَن للخُطوب الشّدادِ" [4]

---

(4) ديوان ابن الخيّاط ، تحقيق خليل مردم ، دمشق 1958 م / 22.121 .

(2)

ولهذه القصيدة قصّةٌ خلاصتُها ، أنّ الأميرَ جلال المُلك أمرَ بذهَبٍ لطُلاّب "دار الحكمة" ، أوكلَ أمرَ توزيعه عليهم إلى ابنِ أبي روح بوصفه مُدرّسُ طُلاّبها والمُولّى عليها . ولكنّ هذا، لأمرٍ ما ، حرَمَ الشّاعرَ ممّا يعتقدُ أنه حقّه من نوال الأمير، بوصفه أحدَ طُلاّبها . ربما لأنه ، أي ابن أبي روح ، لم يكُن يرى فيه طالباً جادّاً ، وهو الذي إنما قدمَ "طرابلس" طمعاً بعطايا بني عمّار، وفقاً لنصيحةِ الشاعر ابن حيّوس له [5] . والظاهر أنه نزل "دار الحكمة" مؤقّتاً للاستفادة من الامتيازات التي لطُلاب العلم فيها . يدلُّ على ذلك أنّ ابنَ أبي روح ، بعد أن وصلته قصيدةُ الشاعر، منحه ما يساوي سهمَ طالب ، ولكن من ماله هو ، وليس ممّا خصّصه الأميرُ للطُّلبة . وهذا يدلُّ ايضاً على تورُّع الأستاذ عن إنفاق المال المُولّى عليه في غير وجهه .

المُهمُّ أن القصيدةَ تدلُّ ، أوّلاً ، على عنايةِ الأميرِ البالغةِ بطلبةِ "دار الحكمة" ورعايته لشؤونهم . وثانياً على لياقته وتأدّبه مع شيخ الدّار، فلم يتجاوزْه . بل وضعَ المالَ كلَّه بين يديه ليَلي هو أمرَ توزيعه . كما تدلُّ أيضاً على أنّ الطلبةَ الذين يتلقّون العلمَ فيها على ابنِ ابي روح كانوا مُتعدّدين . ولكن ضاعتْ أسماؤهم في كوارث الأيّام الآتية .

(3)

لم يصِلنا من أسماء تلاميذ ابن أبي روح إلا ثلاثة . هم :

. الأوّل : محمد بن الحسين بن مخلوف الرّاشدي ، المعروف أيضاً بابن بركات الطرابلسي (ت: 540هـ /1145م) . الذي ذكره العسقلاني عرَضاً ، نقلاً

---

(5) سِيَر أعلام النبلاء : 19 / 478 .

عن ابن ابي طيّ الحلبي ولا ريب. وذلك في الخبر الذي سُقناه في الفصل السّابق عن جَمْع الأمير جلال المُلك بين ابن أبي روحِ وشيخٍ مالكي ، ليتناظرا في شأن الفُقّاع وحُكمه .

. الثاني : أسعد بن عُمر الجَبَلي، الذي وصفه ابنُ أبي طي بأنه "**كان من عُلماء الإماميّة**" [6]. والظاهر أنه منسوبٌ إلى مدينة "جَبَلَة" ، وهي بلدةٌ معروفة بالاسم نفسه حتى اليوم ، في نطاق مدينة "**اللاذقيّة**" . وهي من منازل الشيعة المعروفين باسم العلويين وما تزال . ويُمكنُ أن تكون نسبته هذه مُصحّفةً عن (الجُبيلي) ، نسبةً إلى بلدة "جُبيل" غير البعيدة عن "طرابلس" ، على ساحل البحر ، إلى الجنوب منها . وهي من منازل الشيعة المعروفة وما تزال أيضاً . وقد أشرنا من قبلُ إلى بؤس نشرة كتاب (لسان الميزان) . التي توقعنا في إشكالاتٍ كثيرة . ممّا يضطرُّنا غالباً لمُقارنة نصّه بالنصوص المُوازية حيث يتيسّر. ولذلك فإننا نتعاملُ مع نصّه دائماً ببالغ الحذر، ونُدقّقُ ما أمكننا التدقيقُ في احتمالاته .

. الثالث : أبو اللُّطف الدّاراني . وقد ذكرناه قبل قليل ، وذكرنا انطباعه عن ابن أبي روح ، نقلاً عن الذهبي [7] . ونعودُ إليه الآن لأن قوله في شيخه :"**ما استيقظتُ من الليل إلا وسمعتُ حِسّه بالصلاة**" يدلُّ على أنه كان مُلازماً له ، ويدعو إلى احتمال أن يكون من جُملة تلاميذه ، من بين احتمالات أُخرى طبعاً . يُقوّي الاحتمال الأوّل أن نسبته "الدّاراني" تدلُّ على أنه من "داريّا" [8] . وهي أكبر بُلدان "الغوطة" المُطيفة بـ "دمشق" . ممّا يسمح لنا بأن نتصوّر أنه قدِم "طرابلس" في

---

(6) لسان الميزان:1/ 386 . وانظر الترجمة له في كتابنا أعلام الشيعة : 1 / 299 .

(7) تاريخ الإسلام (510.501) / 447 .

(8) السُمعاني : الأنساب : 2 / 37.436 .

طلب العلم ، والانضمام إلى "دار الحكمة" . وعلى كلّ حال ، فإنه لا ذكرَ لهذا الرجل بغيرتلك المُناسبة . ونحن لم نقِفْ عنده هذه الوقفة ، مع ضآلة النتيجة ، إلا لجَذْب الينابيع التي منها نستقي .

—

2 . في مُصنفاته

ليس في يدنا ما يُعينُ على استبيان مذهبِ ابنِ أبي روح في التصنيف ، كما فعلنا في دراستنا أعلاه على أُستاذه . وذلك بسبب فقدان كُتُبه جميعها. كلُّ ما عندنا عنها أسماءٌ ضائعةٌ ، أقصى ما يُمكن أن نستفيدَ منها معرفةُ موضوع الكتاب إجمالاً ليس غير .

نعم ، نستفيدُ من أسماء غير كتابٍ من مُصنّفاته عنايتَه الخاصّة بفقه الخلاف . ممّا يمكن اعتباره مؤشّراً ، مُجرّد مُؤشّر ، إلى اطلاعه الفقهيّ الواسع على فقه المذاهب . وقديماً قيل ، إن أعلمَ الناس بالفقه هو أعلمهم باختلاف الآراء والاجتهادات . كما يَمكن اعتباره مؤشّراً أيضاً إلى خريطة المذاهب في "طرابلس" أو "الشام" عموماً في زمانه .

أوسعُ إحصاءٍ لكُتُبه نجِدُهُ في (تاريخ الإسلام) للذهبيّ [1] . يليه الصفديُّ في (الوافي بالوفيات) [2] . ثم العسقلاني في (لسان الميزان) [3] . والكلُّ يأخذُ مُباشرةً أو بالواسطة عن ابن أبي طيّ . والكلُّ أيضاً لا يرى حرجاً في التصرّفِ باسم الكتاب كما يحلو له . وها نحن نذكرُ أسماءَ ما وقعنا عليه منها كتاباً كتاباً ، مع مُلاحظة اختلاف الكُتُب في ذلك . ثم التعليق عليها بما يُناسبُ ويُمكن .

. 1: البراهين . كذا وردَالاسم في (الوافي) و (تاريخ الإسلام) ولم يذكره العسقلاني . وليس في اسم الكتاب ما يُشيرُ إلى موضوعه . والظاهر أن الاسم هكذا

---

(1) تاريخ الإسلام (501 510) / 448

(2) الوافي بالوفيات : 9 / 40 .

(3) لسان الميزان : 1 / 386 .

مجزوٌّ ، وأنّ له تتمّةٌ ضائعةٌ (البراهين في. . . .) . كما درجَ في أسماء كُتُبه .

. 2 : البيان في حقيقة الانسان . كذا وردَ اسمه في (الوافي) . وفي (تاريخ الإسلام): **البيان عن حقيقة الانسان** . ويذكرُ في (سِيَر أعلام النبلاء) كتاب : **حقيقةُ الآدميّ** ، وما ندري هل هو نفسه ما ذُكر بالاسميَن الآخَريَن أم غيرهما . ولم يأتِ العسقلاني على ذكره إطلاقاً . والظاهر أنه بحثٌ فلسفيٌّ / أخلاقيّ أو ما شابه .

. 3 : البيان في خلافة [كذا **!**] **الإماميّة والنّعمان.** هكذا في (لسان الميزان) . وفي (الوافي) : **التبيان بيننا وبين النّعمان** . وفي (تاريخ الإسلام) : **التبيان في الخلاف بيننا وبين النعمان** . وواضح أنّ المقصود بـ "النعمان" الإمام ابو حنيفة .

إذن ، فالكتاب في فقه الخلاف بين الإماميّة والأحناف .

. 4 : التبصرة في معرفة المذهبيَن الشّافعيّة والإماميّة . كذا في (لسان الميزان) . وفي (الوافي) و (تاريخ الإسلام): **التبصرة في خلاف الشافعي للإماميّة** ، وهو الاسمُ المُرجّحُ لأسبابٍ واضحةٍ . وهذا أيضاً في فقه الخلاف ، ولكن بين الإماميّة والشّافعيّة .

. 5 : عُيونُ الأدلّة في معرفةِ الله . ذُكر بهذا الاسم في المصادرالأربعة . والظاهرُ أنّه كتابٌ كلاميّ . ويبدو من الإجماع على اسمه أنه كان كتاباً معروفاً .

. 6 : الفرائض . ورد ذكره هكذا في (الوافي) و (تاريخ الإسلام) . ولم يذكره في (لسان الميزان) . والظاهرُ أنه في فقه الإرث .

. 7 : مسألةُ تحريم الفُقّاع . كذا في (تاريخ الإسلام) . وفي (الوافي) : **مسألةُ الفُقّاع** . وقد ذكرنا قبل قليل المُناظرةَ التي عقدها الأميرُ جلالُ المُلك بين ابن أبي روحِ وبين فقيهٍ مالكي على شأن الفُقّاع وحُكمه . فمن المُحتمل جدّاً أنّ ها هنا علاقةٌ بين واقعةِ المُناظرةِ وبين اهتمام ابن أبي روح بالتصنيفِ في هذا الموضوع .

. 8 : المُقتبَس في الخلاف بيننا وبين مالك بن أنَس . كذا في (الوافي) و(تاريخ الإسلام) . وفي (لسان الميزان) : **المُقتبَس في الخلاف مع مالك بن أنَس** . وواضحٌ أنّ هذا في فقه الخلاف بين الإماميّة والمالكيّة . وبه يكون قد استكمل خِلافيّاته مع ثلاثة مذاهب . ويظهرُ من موضوع هذا الكتاب وسابقه أنه كان في "طرابلس" في ذلك الأوان جاليةٌ مالكيّةُ المذهب كبيرة . وهذا أمرٌ غير معروف وليس مذكوراً في المصادر.

. 9 : المناسك. كذا في (الوافي) و (تاريخ الإسلام). ولا ذكرَ له في غيرهما .

. 10 : النور في عبادة الأيّام والشهور. انفرد بذكره في (لسان الميزان) . وموضوعُ الكتابيَن الأخيريَن في غير حاجةٍ إلى البيان .

—